- حليب أسود (عن هارون الرشيد والبرامكة) .
- نقوش على جدارية محمود درويش .
- الخروج إلى الحمراء (عن أبي عبد الله الصغير وتسليم غرناطة).

في الدراسات :

- بعد عقدين .. وجيل (الثقافة الوطنية الفلسطينية في الأراضي المحتلة بعد عشرين عاما من الاحتلال) - بالاشتراك .
- دراسات في الأدب واللغة (الإنسان، الشعر، المسرح، اللغة).
- الثقافة والانتفاضة (بعد ألف يوم من الانتفاضة، أثر الانتفاضة في الثقافة وأثر الثقافة في الانتفاضة)، بالاشتراك .
- إبراهيم طوقان (دراسة في شعره) .
- الكنوز (ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان) .
- هذا ما لزم ، رسائل أبراهيم طوقان إلى فدوى طوقان .
- دراسة في قصيدة «الثلاثاء الحمراء» ، البحث عن شاعر آخر .

النصوص (الأعمال النثرية) :

- رمل الأفعى (سيرة كتسيعوت ، معتقل أنصار 3).
- عباءة الورد (نصوص الانتفاضة) .
- طهارة الصمت (عن الكتابة وهموم الثقافة) .
- الانتفاضة، مرايا الدم والزلزال (- شهادة - عامان على انتفاضة الأقصى).

المتوكل طه – سيرة ذاتية

– من مواليد مدينة قلقيلة – فلسطين العام 1958 ، حاصل على ماجستير في الآداب.
– اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلي غير مرة.
– انتخب رئيساً لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين من 1987 - 1995.
– انتخب رئيساً للهيئة العامة لمجلس التعليم العالي الفلسطيني من 1992- 1994.
– شغل منصب وكيل وزارة الإعلام الفلسطينية من 1994- 1998.
– أسس بيت الشعر في فلسطين العام 1998 مع عدد من المبدعين الفلسطينيين، وما زال رئيساً للبيت، بالإضافة إلى كونه مستشاراً في الرئاسة الفلسطينية برتبة وكيل وزارة.
– شارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات، ونشر الكثير من أعماله في الداخل والخارج ، وترجمت عدد من أعماله إلى عدّة لغات.

في الشعر :

– مواسم الموت والحياة.
– زمن الصعود .
– فضاء الأغنيات .
– رغوة السؤال .
– ريح النار المقبلة .
– أو كما قال (مختارات) .
– قبور الماء .

- دمع الثلج الساخن 535
- أيتام العرب 541
- أيتام المرحلة 547
- كانوا ثلاثة رجال 557
- يا عبد اللطيف 563
- عن اختفاء الشاعر 569
- أنفاس الأيل 575

– أي مثقف .. وآخر	389
– الشعر! أشياء قديمة لا تزول	401
– فلسطين – إسرائيل .. خطّان لا يلتقيان	411
– عن التطبيع .. ومعنى المكان	419
– أسئلة برسم بيانات المثقفين «الاستنكارية»	427
– أبناء أنثى الوشق	435
– ومضات عن اليساري والجنون المتطرف	447
– قوّة الشِّعر	453
عباءة الورد (نصوص الشهداء والانتفاضة)	461
– عاهل العاصفة	463
– حنظلة الغسيل	456
– دمعة الشهيد	469
– يعبد .. هلال العيد وبلال الآذان	473
– لم يعتذر عن موته	481
– الأب، الأم، والفتى	487
– «شو يعني مات؟»	493
– أعراس قلقيلية	497
– عنق النار	501
– «لحية أبو اسماعين»	507
– كل شيء لهم	513
– سرّ سعادة مسعودة	517
– سرير الدم	521
– شقة محمود في بيت سميح	529

الفهرس

توطئة : في الصعود إلى النص : عزت الغزاوي	5
رمل الأفعى (**سيرة كتسيعوت / أنصار** 3)	15
– تقدمة : صبحي حديدي	17
– السيرة	23
الانتفاضة (**مرايا الدم والزلزال**)	169
– هذه الشهادة	171
– من أوسلو إلى انفجار الانتفاضة	179
– من الانفجار إلى الاجتياح	193
– من الاجتياح إلى الاحتلال	237
– من الاحتلال إلى الاحتلال	265
– ملح يافا حلو	315
طهارة الصمت (**عن الكتابة وهموم الثقافة**)	343
– طقوس ولادة القصيدة	345
– المؤرخون الجدد في إسرائيل	361
– عن الهوية	371
– مثقفون .. صورة عن «هناك»	379

ورغم كل هذا وذاك، فإن حلمنا الحيّ الموصول النابض فينا، وفي حقائب صغارنا ومدارك أجيالنا، سيجعلنا نهتف في وقت ليس ببعيد: هذه مدننا!

لكننا لن ننسى، رغم ذلك، رام الله.

رام الله.

فجاءت رام الله زنبقة من رخام الصدور، تشهق لكل نور وبرعم وأيل!
رام الله .

*

وتفتح رام الله صدرها وذراعيها للعائدين إلى أرضهم الأولى، ليطلّوا منها على الأسوار والقباب التي تبعد نبضة قلب أو مرمى زهرة، فتتسع المدينة، ويصبح لها غير منصّة، فتصبح بهذا التجمّع الكثيف والمباني الجديدة الأفقية المتراصّة قد دخلت إلى رصانة البلوغ الحجري، وفقدت مسحة هدوئها الرسولي، وربما هذا ما جعلها مركزاً حداثياً له ثقله ووجاهته، مثلما له جهامته وتجهّمه.

ربما كانت رام الله شمعة في كنيسة خاشعة، أمّا الآن فقد أصبحت كشّافاً يغطي مساحة واسعة من المعمورة بالضوء.
رام الله .

*

ربما عانت القرى والمدن الفلسطينية من التكلّس، وأصبحت خارج الزمان والمكان بفعل التهويد والاحتلال، الأمر الذي جعلنا نخسر أهم المدن، من حيفا إلى يافا إلى عكا إلى عسقلان، ولم يتبق لدينا إلا بضع مدن هي أقرب إلى القرى التي أوقف الاحتلال نموّها لتصبح مدننا التي نعدّها.

مدينة مختلفة، هكذا يطيب لنا أن نرى رام الله، بل ثمّة ما يغري في هذا الاختلاف! ربما ليست مختلفة إلى درجة أن تظلّ رؤوسنا جافّة وهي تمرق تحت سمائها الماطرة، لكنّ روح المدينة قد أخذت من الأيل أنفاسه – كان الهندي الأحمر يركض نحو الأيل الذي وقع في شرك الهندي، وينتظر الهندي الأنفاس الأخيرة للأيل المحتضر، ثمّ يضع فمه على فم الأيل ليسرق منه أنفاسه، وبهذا يكتسب الهندي كل صفات الأيل من الرشاقة إلى الحذر، إلى حور العيون – .

ربما، أيضاً، كان ثمّة أيل في هذي البطاح احتضر، فشربت أرضُ رام الله أنفاسَه فاختلفت المدينة ورقّت!

وربما، تَعبُّ رام الله أنفاس شهدائها، فتأخذ وسامتهم وبسالتهم وتطالعنا بطَلَّتها المكتملة.

رَام اَلله.

*

كان سكان الأرض الأولى يحرصون على ذكر أحبابهم وأقاربهم في اللحظة التي يخرّ فيها نيزك أو شهاب، اعتقاداً منهم أنّ ذلك حرز وتميمة لِمَنْ يُحبّون، وإعطاء نثار الضوء لهم، وصبّه في قلوبهم، ليظلّوا مضيئين رائعين، محروسين بعناية النجوم الهاوية. تماماً كما يعتقد المسلمون أن الدعاء ليلة القدر، عندما تفتح السماء شبابيكها، تحقق لهم آمالهم، وتستجاب دعواتهم وتضرّعهم. وبالتأكيد، ذكر بُناةُ رام الله بلدتَهم عندما هوى نجم عن يمينهم، وفتحت السماءُ نوافذها عن شمالهم،

رام الله والبيرة مثل الشفة العليا والشفة السفلى لا تكتمل كلمة الحبّ إلاّ بهما، فإذا قلنا رام الله أو قلنا البيرة فإنما نعني جذعاً واحداً ممرعاً له غصنان طيبان؛ الأول رام الله والأول البيرة . والثاني كلتاهما . . وتظلّ رام الله تحتفظ ببيوتها الحجرية النظيفة المغطّاة بقرميد جليل، وحدائق ريّانة تفيض عليك بطيبها وبخورها اليانع قبل أن تدخلك إلى حجراتها .

هل رأيتم جدران رام الله وأشجارها بعد أن تغسلها الأمطار؟ أو حين يلفّعها الغيم، أو وهي ترتعش في كثافة الضباب الثقيل؟!

رام الله .

*

يبدأ الانفجار العبقري وترفّ حجارة الانتفاضة في سماوات البلد، وتصبح هذه اليمامة نورساً أو صقراً يجنّح فوق المحتلّين الذين يقعقعون بأسلحتهم رعباً من مواقد هذه المدينة وكوفيتها المطرّزة .

في الانتفاضة، أحالت رام الله جدرانها إلى أفراس جامحة، وشوارعها إلى بوّابات جحيم، وقرميدها إلى سماء من جهنم تتقطّع وتسقط على المدجّجين القتلة .

كانت أشجار رام الله عالية تليق بحرّاسها الصغار، ودفق الدم الذي حرّرها من البساطير والدخلاء، ورغم انكسار المئذنة وانسفاح دم النواقيس، فإن ألوانها بقيت عصيّة صاعدة، وظلّت غلالات صيفها مطهّمة بالهمس والورد وذهب الأعراس .

رام الله .

في هذه المدينة كنّا نتمّم شهواتنا ونكمل زينتنا، وفي العطل القصيرة خلال السنة الدراسية في الجامعة، لا نعود إلى أمهاتنا، بل نسوح في رام الله، نبحث عن اللا شيء الذي هو كل شيء، وثمّة برنامج غير معلن، لكننا حزمة من القرويين تواطأنا على تنفيذه، وتكون البداية المشي في شارع «ركب» تاركين مرابض أسُود «المنارة» خلفنا، باتجاه مطعم الشاورما فنلتهم غير رغيف، ثم نشرب عصيراً طازجاً، ونمشي، ليأتي دور الكنافة، ومن ثمّ إلى السينما. أمّا في الليل، ومع بداياته العابقة بالضوء والأناقة والسحر، فتكون قد دخلنا إلى ساحة الـ «غراند هوتيل» حيث العائلات والنافورة المضاءة، ولا بدّ من أن نبتعد قليلاً عن المكان المخصّص للعائلات، فيشير علينا النادل أن نجلس في زاوية المطعم الصيفي المكشوف، وتبدأ الموسيقى، وتعتلي القدود المهدومة والشباب الأنيقون الطازجون منصّة الرقص، فتزداد الكؤوس وحمرة وجوهنا.. وتزداد، حتى الهزيع الذي جاء يقطر بعرق العطر المصوّح.
رام الله.

*

وتنتهي مرحلة الطلب الأولى في الجامعة، ونهجر رام الله ملتاعين ومحمولين بذكريات طافحة أخّاذة، تحكّ رقابنا مثل شال الحرير كلما مشينا في دروب الغربة. ونعود بعد سنتين إلى رام الله، أكثر حكمة وتماسكاً، ويكون البيت الجديد في مدينة البيرة؛ شقيقة رام الله، ورئتها الأخرى أو عينها الثانية.

بيرزيت، وتكون أمّهاتنا قد أعددن لنا ما تيسّر من حوائج البيت، وبعض الملابس الجديدة المضحكة، ووصايا لا تنتهي . ندخل الجامعة وتستقبلنا المدينة برسوخها واثقةً مطمئنةً فنتعرّف إلى البيجاما والسرير وفرشاة الأسنان، وتنسيق اللباس وتلميع الحذاء . . رام الله، إذاً، أوّل المدنية مثلما هي أول صعقة واختباء وقُبْلة .

كانت المدينة، قبل ربع قرن، هادئة كعباءة النبيّ، لا ضجيج ولا زحام ولا غبار، تحرس طرقاتها المعبّدةَ أسرابُ الحور والمطّاط وحواكير اللوز والزيتون، وما أن تذرعَ أحد شوارعها ساعة الأصيل حتى تعبئ صدرك الفراشاتُ والأغاني البعيدة، وتمشي في ليل شوارعها النهارية، فتأتيك نجمة تضع ذراعها بذراعك وتماشيك، لتشهد معك غسيل قلبك بالندى وعبير ليلة القدر والياسمين .

رام الله .

*

ثمّة عشق يكسر الأضلاع، تماماً، ذاك هو عشق رام الله، أن تحبّها أو تحبك أو تكون شاهدة على اشتباك خرزتين على ثوبها المُقصّب .

هذا العشق لا تدريه، بل يخرّ مثل النيزك في شريانك، فيعكّر دمك بسُكّر رام الله أو نبيذها الخفيف . عشق طائش يأتيك من معركة غير قائمة، لكنّه ينفذ إلى أضلاعك، ويئزّ مثل نحل الصيف .

أمّا نحن الذين جئنا من القرى والأرياف فإننا سريعو الارتباك، نتلعثم إن صافحنا إحداهنّ، فكيف لنا، إذاً، أن نكسر تلك الجوزة التي تدفُّ بضفائرها بين أيدينا .

ثمّة بلاد أخرى خارج بيت العنكبوت، أيها الفتى!
وثمّة نساء مكتملات يفضن بالجبنة والرمّان الحامض، وفي تلك البلاد سماء أخرى من بحرٍ شفيف يفضفض بالندى والنسائم وحمائم القرميد المعتّق.
مدينة صغيرة بحجم القلب، لكنها أميرة المدائن، كانت حلماً مُشتهى، نلوب كي نكسر، في أحلامنا، جرارَ الشهوة، ونلتقي البياض والجنون تحت أشجارها المسحورة. وتحيلنا المدينة إلى كائنات مسّها الهوس فجأة، لكنها تكتسب رغبة الانطلاق والاختلاف، فنخلع ثوب القرى باتجاه بوابات المدينة المشرعة، ونمشي الخيلاء خفّة وعياقة، مسرعين تحت ظلالها الهادئة، قبل أن تهجرنا الغفلة، ونصحو على فجيعة الحياة ومآسيها الثقيلة، وقبل أن يلفّقوا لهذه المدينة علباً حجرية جديدة أضاعت صدرها المعشب وبساطها الباذخ ونوافيرها التي تحتفي بالطيور. وثمّة ضواحٍ جديدة جعّدت أجنحتها كأنما تجرّأت عليها السنوات، ودهمها الهرمُ، فاكتسبت مع الضوضاء غلظة، واغتربنا فيها قليلاً، وغارت أحلام الصبا!
وبقليل من الخطوات والإمعان، تلمع الطفولةُ ثانية في أحيائها القديمة، وتبزغ مليحةً، كما كانت، رغم كل شيء.
رام الله.

*

نخرج من قوقعة الريف إلى فضاء المدينة التي ستجمعنا طلاّباً في جامعة

أنفاس الأيل

إلى رام الله

ويا غرناطة! إن ولادة طفل أندلسي مثل لوركا تبدو مسألة مشعّة، ومختلفة وأنيقة، إلى حدّ يصبح فيه موت ذلك الطفل الشاعر بسالة مرحة، ويظل ريكاردو في كل مكان، يبحث عن سرِّ اختفاء الشاعر، مثلما يبقى والده الضابط مصاباً بعجز كامل عن إجابة سؤال الشاعر الغامض: أين قمري؟

وما زال الصدى يردّد السؤالَ في كل أرجاء هذه المعمورة، من غرناطة إلى بنجامين مولويز . . إلى كمال ناصر . . وإلى آخر بلد سيشهد موتاً جديداً لآلاف لم يعد بالإمكان إحصاء هضاب قبورهم الجماعية، من غرناطة إلى فلسطين، وإلى ما شاء الموت.

وقعّه له الشاعر لوركا، وألقاه فوق نعش خورخي . . ليدفن كتاب الشاعر مع الشهيد الصغير .

وفي غرناطة التي احترقت جدرانها، ويتّم جنودُها أبناءَ شقيقة لوركا، قال للذين جاءوا لاعتقاله : لن أرضيكم بإظهار خوفي لكم! مثلما قال لقاتله سينيتينو : أين قمري أيها القاتل؟! لكنّ القاتل، وبعد أن أطلق الرصاصة على رأس لوركا، غرز أصابعه وأخرج الرصاصة، ثم ألقاها في كأس نبيذ وهتف: إنه دم شاعر . . بصحتك أيها العقيد!!

غرناطة! مَنْ يراك يتذكرك . . يا مدينةَ المسْك والأحزان، لماذا لم ترحمي ريكاردو؟ ولكنْ هل شفَعت لشاعرك حتى ترحمي طفلك؟؟ غير أن طفلك يتبع شغف فتاة تزهَر لتصبح كل الغجريات، ويمضي وهو يتحسس فَراشةَ قُبْلتها عَلى جبينه، وسيلتبس الأمر في ذهنه؛ كيف لصاحب المطبعة «لوزانو» الذي أمر باعتقال لوركا حين كان ضابطاً أن يعيد طباعة أعمال لوركا الكاملة، ربما هي المفارقة الذابحة التي دفعت الضابط إلى أن يقتل الشاعر، ويُعيد طباعة أعماله الكاملة، ولا تناقض في الأمر، لأنه لو لم يكن يفهم شِعره جيداً لما أمر باعتقاله وقتله.

وكظلّ، تتّسع زهرةُ الموت، وتصيد بأريجها النافذ قلوبَ كل من عرفوا الشاعر، وربّما انفتحت قلوبهم كالزهرة تحت سماء شعره، لكنهم عندما صمتوا، واستمرأوا اغتياله، وخافوا من أن ينبسوا ببنت شفة أمام جبروت الموت الظالم، جاءت طعنةُ الثور نهائية، لكنهم لما يسألوا الثور الهائج : أين قمري ؟

تصعدُ إلى سماوات البلد، لترى آثار أُمّة اندحرت وباد أهلها، وبقيت «الحمراء» و «القصبة» ومزَقُ البساتين التي كانت تضوِّعُ الأرض، تلك غرناطة الباقية رغم الإهمال والانكسار العنيف. هنا غرناطة، مرآة الأندلس والشغف العملاق . . الذي ما زال يتبختر ويصحو فيها، وهنا الأعناق المعجونة بالسوسن، أو المذبوحة والمغطّاة بالثلج، وهنا كان الشاعر غارسيا لوركا . . الذي رغب في أن تحرقه العاصفة.

أمّا القصّة من أوّلها، فإنها تبدأ مع الطفل «ريكاردو» الذي كان يحبّ الشعر، وكان التقى لوركا في كواليس المسرح، ليوقّع له الشاعر الكبير لورَكا ديوانه ويرجوه ألاّ ينساه. ربما كان لوركا طفلاً، أيضاً، كما كان ريكاردو.

ولمّا اشتعلت الحرب الأهلية وراح جنود «فرانكو» يقيمون هضاباً جديدة، هي القبور الجماعية للأبرياء المذبوحين من أهل غرناطة، عاد لوركا إليها، ولمّا لامته أمُّهُ على العودة وسط هذا الطوفان الذي لا يرحم، قصّ عليها ما قاله الخادم لسيّده عن الموت في بغداد.

ولأن ريكاردو أراد أن يرى لوركا مرّة أخرى، اصطحب معه، وسط انتشار البنادق والموت، صديقه الطفل خورخي؛ ابن الضابط الذي كان يعطي الأوامر لقتل الناس، فجاءت رصاصات الجنود لتحصد أطفالاً كان خورخي من بينهم، وعندها لم يجد والده «العقيد ماناويل» الدمع الذي سيطفئ عذاب ضميره!! لكنّ ريكاردو حمل ذلك الكتاب الذي

عن اختفاء الشاعر

إلى مَنْ يشبه لوركا

ونادراً، يا عبد اللطيف، ما أذهب إلى القدس، لأنها لم تعد هناك .
أما أريحا وقصة «قطف الموز» الذي أتينا عليه ذات أمسيّة شعرية فقد نسيتُها، ولم أعد لتكرارها الظريف للأصدقاء الذين أنستهم أيامهم مدينة القمر التي أصبحت تتلقاك بالانتركونتننتال والكازينو، وتصفعك على قفاك بالدوريات العابسة المدججة بشواهد الاحتلال الباقي على طول خط النهر المسروق .
وأرجوك أن تطمئن، فلم أذهب إلى أحراش «أم صفا» وقرية النبي صالح عند أخينا «أبي نزار» إلاّ بضع مرات، كنتَ حاضراً فيها حتى لم يطب لنا طعام، ولأن الروح لم تعد قادرة على استرجاع تلك القصص الطريفة عن ظرفاء القرى، والأشخاص المتفردين بذكائهم الفطري على اجتراح الضحكات الصافية، لم نعد قادرين على الضحك يا عبد اللطيف .

*

واليوم ذكرى موتك الكبير، تذكرتك تماماً، وكدت أختنق لأنني لم أستطع البكاء عليك كما ينبغي! ربما لم نعد قادرين على البكاء، أيضاً . . يا عبد اللطيف .

أيها القاسي المذبوح، النائح الجائح، المعلّق من قلبه في الغياب! لماذا أعدتَ سيرةَ أبيك، وتركتَ الزغب عُرضةً للصدَقة والمنّ وانكسار العين واختلاج الضفيرة؟ هل كنتَ تعلم أن فينا من الدمع ما يغرق الأرض، أم لنعرف مبكّرين لؤم الناس، فيقوى الحصن وتصحو الفرس، وتقطع البراري مضمخة بشهد أعرافها الرانخة؟ هل كان ذلك ضرورياً يا عبد اللطيف؟

*

مرت سبع سنوات على صعقة رحيلك، لكن آب ذلك العام لم يكن قائظاً مثلما هو اليوم، ولم يتبدّل التراب حول قبرك المهمل، غير أن النبتة التي تبزغ في الربيع تموت في الخريف، لتعود ثانية في ربيع القرى البعيدة. ولم يطرأ تغيّر يذكر على أزقة «دير استيا» وبيوتاتها، غير أن المستوطنة المضيئة التي كانت تلعلع في الليل احتلت كل الجبال، ولم يعد بإمكاننا أن نشرب ذلك الشاي المخمّر، بـ«الميرمية» أو «الزعتر عراق»، لكن الوصول إلى قبرك أصبح أكثر أيسر، لأن «الطريق الالتفافية» التي شقّها جنود الموت لاستكمال إقامة دولة «يهودا والسامرة» تسمح لنا أن نقطع المسافة بسهولة مبهمة! فأصبحنا نتلعثم ونحن نقرأ الفاتحة على شاهديك النابزين مثل أسنان رضيع يتيم.

*

تقف السيارة، وينزل منها رجل مربوع يغطي الشَعرُ وجهَه، فلا تتبيّن إلاّ العينين والأنف البرعم! ويهبط إلى حواكير التين، فيشهق العسلُ على عثنونه، ويستمرئ التلقيط والتقشير، حتى يضرب على بطنه بحنان، ويقول: لقد تغدّيت، وربما لن أتعشّى .

. . يدور المحرّك، وتنطلق به السيارة، وعند المساء يأتي البومُ ليقرأ علينا ما قاله عبد اللطيف عقل للمرآة عندما نظر الى وجهه فيها للمرة الأخيرة! ربما لن ينشقّ فمُ الزئبق المسطّح، ليخبرنا بما تجمّع تلك اللحظة في الرأس المليء بالتين والفجيعة والرهبة الزائغة. هل حضر رأسُ أبيه الذي قضمه الجَملُ بأنيابه فمات، أم رأى أمّه وهي تنسلّ عروساً حزينة إلى بيت الجار ذات مساء، وتترك في العقد الكبير المتآكل كومةَ صغار، فتتَّهمُ اليُتْم، وخنقهم الدمع البريء الغامض؟!

ينام الصغارُ فيرسلُ اللهُ ملائكةً تمسّد شَعرهم وتربت على ظهورهم وتهدهدهم، وتسقط من السماء دمعتان .

*

لم يبرحه اليُتْم ولا الحزن، ولم يشبع، وما كان له أن يتمّم أناقته دون ماء زجاجي يلمع في عينيه. أما في بيته وبين أُسرته فكنتُ أسمع خرير دموعه وهي تهبط إلى رئتيه وهو يحضن الصغار. هل كان يعلم أنه سيذهب مبكراً إلى هذا الحدّ، فبكى رغم اختفاء الماء الذابح؟

يا عبد اللطيف! يا أبي الذي لم أره، ولم أتعلّق بقمبازه الصوف، ولم يقف لي أول الصفّ حين خرجتُ مع عروسي يوم زفافي. أين ذهبت

يا .. عبد اللطيف

إلى روح صديقي الشاعر المفكر عبد اللطيف عقل

هل فشل الرجل؟! وماذا يستطيع رجل أن يفعل أمام تاريخ «مقرر» سلفاً؟! هل يستطيع رجل مثله أن ينسف اتفاقات العامين 1916 و 1920؟! كان رجلاً سيئ الحظ بكل المعاني، وذهب يحمل سوء حظه وقلة حيلته أمام تاريخ له قوة غاشمة.. في ظرف رديء إلى أقصى الدرجات.

ما نقوله إن شعبنا، ككل شعب آخر، فشل في نضالاته مرة أو مرات، حاول وجرب، أنجب رجالات، وخاض تجارب وصراعات، ولكن إرادته أكبر من حجمه، وإيمانه اكبر من واقعه، وطموحه أعلى من قامته، وهذا لا يعطي الحق في النسيان أو التجاهل أو التغييب، إنهم فلسطينيون.. عاشوا كذلك.. وماتوا كذلك.. أليس كذلك؟؟

من هؤلاء، وعلى رأسهم، السياسي والمناضل الفلسطيني أحمد الشقيري، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، الذي عاش حياة حافلة بأشكال النضال العسكري والسياسي، واستطاع، لأسباب عديدة، أن يدفع باتجاه إقامة المنظمة وجعلها مظلة سياسية للفلسطينيين. وبالتأكيد، لن نحمله عبء الفشل، فقد كان ابن الستينيات أيام انفجار المد القومي بسيئاته وحسناته، وسيبقى الشقيري فلسطينياً انشغل بالمتاح وتعامل معه، وأسّس عليه، وبالتالي فهو ليس ابن رحلة فاشلة، وإنما كان نتاجاً طبيعياً لمرحلة شعار عريق وكبير وطموح.

المفكر الفلسطيني الثاني الذي غُيّب تماماً عن الأدبيات الفلسطينية أو الإشارات الثقافية هو الشيخ تقي الدين النبهاني، مؤسس حزب التحرير الإسلامي، وأحد أهم المفكرين الذين حاولوا، بصدق وجد وإصرار، الدفع بالفكر الإسلامي السني إلى اقصى حالات تناقضه مع السائد والشائع، وهو كذلك أحد الذين هضموا بشكل يدعو إلى الدهشة تراث الأشعريين، ومن ثم ابن تيمية ومدرسته، ليجابه به الفكر العلماني وما نتج عنه من أنماط تفكير وتنظيم وادارة. المدهش في الأمر أن ذكر النبهاني غائب تماماً في الإشارة إليه أو التعريف به – حتى أننا لم نُطلق اسمه على شارع أو مدرسة أو ناد ثقافي – .

الفلسطيني الثالث المغيّب هو الحاج أمين الحسيني، الذي غيب إلى الدرجة التي يذكر فيها اسمه مع الشعارات الهوجاء، والعمل السياسي الفاشل، والتحالفات المغلوطة.

ولكن الحسيني استطاع يوماً ما أن يجمع معظم أهل فلسطين تحت لوائه (سيف الدين الحاج أمين)، واستطاع أيضاً أن يقود ثورة هذا الشعب، وأن يضع قضية فلسطين تحت كل الأنظار.

حيوان الاسفنج البحري حيوان عجيب، فقد احتار فيه علماء البيولوجيا قديماً، إذا اعتبروه نباتاً لأنه ثابت لا يتحرك، وينمو كما الاشجار، حيث إن كل قطعة منه، مهما تناهت في الصغر، تمتلك القدرة الكاملة على النمو من جديد، ومرت قرون طويلة قبل أن يكتشف العلماء أنه حيوان ذو قدرات هائلة على النمو والحياة والاستمرار.

قدرة الإسفنج هذه على الحياة في كل الأماكن، وتأسيس مجتمعات بعيدة ومختلفة، وتطوير هذه القدرة على البدء من جديد، تشبه في وجوه ما حالة الفلسطينيين الذين منعوا من التطور الطبيعي، مثلما منعوا من التناسل والحياة على أرضهم، وأجبروا على الحياة بعيداً.. عن منابع المياه والسهول والجبال والمغاور والاسبلة.. فحمل الفلسطيني مكانه في قلبه وتشرد تحت كل كوكب.

هذا التشرد، وهذا التشظي، لم يخلق تاريخاً فلسطينياً واحداً، ولم يخلق حالة فلسطينية واحدة، بل خلق حالات وتواريخ، وحتى ذاكرة متعددة، وبعيداً عن الرومانسية المفرطة أو النظرة التسطيحية، فإن هناك مصالح متضاربة في بعض الأحيان!!

ومن هذا المنطلق تبدو بعض المحاولات في العودة إلى تاريخ ما قبل 1948 كأنها محاولة توحيدية وتأطيرية وتجميعية للذاكرة والتاريخ والثوابت. ومن هذه المحاولات الاحتفال بالشعراء والكتاب والأمكنة الفلسطينية التي درست أو انطفأت.

ومع كل هذه الجهود الطيبة، إلا أنني لحظت تغييب أسماء أخرى كثيرة، غابت أو غُيّبت بسبب السياسة مرة، أو الأيدلوجيا مرة أخرى، أو بسبب عدم الانتباه أو عدم استحضار الذكرى.

.. كانوا ثلاثة رجال

إلى الشقيري والنبهاني والحسيني

وثمة آلاف وسائل التعذيب التي باتت معروفة لمئات آلاف المعتقلين الفلسطينيين منذ حزيران 67 وحتى تشرين الأول 1999 . . ولم تنته بقدر ما تستفيد من آخر التقنيات وآليات التعذيب الحديثة .

لهذا، فإن المعتقلين الفلسطينيين الذين يلوّحون بالإضراب والاحتجاج على سوء معاملتهم، بدءاً من انقضاض إدارة السجون عليهم، وانتهاءً بعدم الإفراج عنهم، سينفجرون يوماً ما، إذا لم يُحسن إليهم بما يستحقون من معاملة إنسانية وحرية غير مشروطة ، وسيكون الانفجار هائلاً وغير متوقع وفي منتهى الحدة والفجيعة - لا قدّر الله - وأرجو أن لا يضطروا إلى الوصول إلى هذه الحافة الهاوية، لأنهم لن يسقطوا وحدهم، بل ستسقط الكثير الكثير من الرؤوس والكلام والآمال .

المحشورون

بالتأكيد لا يستطيع أي حيوان أن يحتمل «الحشرة» في زريبة طولها متران وعرضها متر واحد، ومدة تتجاوز بضعة أعوام، فكيف يكون الحال إذا كان المحشور إنساناً من أحفاد آدم !!
ربما استطاعت الآلة الإعلامية الصهيونية أن تهوّل صور التعذيب الذي تعرض له اليهود في معسكرات النازية، لكن آلتنا الإعلامية، ولغير سبب، لم تستطع أن تقنع العالم أن ثمة أساليب يعاد إنتاجها على جلودنا وروحنا من أبناء الناجين من أوشفتس أو غيره .

فمثلاً - وهذا منذ ثلث قرن - تقوم إدارة السجون الاحتلالية بوضع معتقلين وأسرى في زنازين انفرادية وسط السجناء الجنائيين الإسرائيليين الذين يسمونهم «البوشعيم»، أي وضع المعتقل والأسير في ظرف داخلي مضغوط مرعب لا يوصل إلا إلى الجنون، وفي ظرف خارجي لن يؤدي إلاّ إلى الرعب والجنون ، وتستمر الحال عدة سنوات تصل إلى العشر والخمس عشرة سنة! تخيلوا ؟!

الجدير بالذكر أن «البوشعيم» غالباً ما يكونون من تجار المخدرات أو المدمنين أو القتلة أو المثليين، عدا كونهم جهلة ومعبئين بحشوة فاشية ضد كل من هو عربي أو فلسطيني . . الأمر الذي يفسر تعرّض عشرات «المحشورين» للذبح بالشفرات أو الضرب والاغتصاب والتشويه والأعصاب من «البوشعيم»، وبمباركة إدارة السجن الإسرائيلي .

بذاتها، هي التي تباعد ما بين سجني تلموند وعسقلان . . أو ما بين دير بلوط والبرازيل . . أو ما بين الاحتلال والسلام . . وهما عملة واحدة، ولها الرنين نفسه .

أبو الناجي

أبو الناجي عثمان مصلح ابن قرية الزاوية الواقعة قرب سلفيت التي تنام على بحر من الماء والزيتون، وتحاول عشرات المستوطنات هضمها حتى بتنا نخاف من أن تصبح منطقة سلفيت حارة وسط محيط البيوت العصرية الهجينة المقحمة في المكان والزمان . . هذا أبو الناجي الذي أخذوه من حضن فراشته قبل ثمانية عشر عاماً، أصابته ذبحة صدرية مؤخراً من الفرحة، وهو في السجن!!

كان ذلك ذات يوم بعد الزيارة، حيث أحضر له ابنه - الذي أصبح شاباً بعد أن تركه في اللفة- صوراً للبيت والأسرة والأبناء والعائلة . . لعل أبا الناجي لم يصدق هذه القدرة القوية الكامنة في الناس على الحياة، وعلى التقدم نحو إنجاز ما يلزم للأبناء والبنات . . وربما كانت الصور عزاءً له . . فلم يحتمل الفرحة، فدهمته الجلطة .

قد يكون تحليل المعتقلين لحالة أبي الناجي - بأن الفرحة ذبحته - تعبيراً قاسياً وغريباً، لكنه يحمل قدراً كبيراً من تجميل الأحزان والرغبة في إقصاء كل أشكال الموت والحزن والانكسار ومكوناتها . فهل يعقل أن تكون هذه الفرحة الصغيرة بهذه الضراوة والتأثير . . ربما !! ربما !!

كان أبو السُكّر قد حكم عليه بالمؤبد من ترمسعيا إلى القضبان المنسيّة، ومرّت عليه خلال تلك السنوات أجيال من المعتقلين والمحررين، استقبلهم وودّعهم بحرارة، على أمل أن يأتي يوم الفرج الذي تأخر كثيراً، لعدة أسباب، أوّلها أن شيخوخته لم تعد تحتمل افتراس إدارة السجون، وثانيها أن معتقلي «فتح» بالتحديد لا يوجد مبرر لبقائهم في السجن لأنهم مع المسيرة السياسية، ولأن مسؤوليهم الذين أمروهم بالعمل ضد الاحتلال عادوا وهم أحرار في مدن فلسطين، رغم أن حال السلام يقضي بأن يتم إطلاق كل سراح المعتقلين دون تأخير أو تمييز، لأن المنطق والطبيعة يقضيان بأن يعود أبو السُكّر إلى ترمسعيا، لعل صدره ينقبض من مرأى المستوطنات التي دهمت كل شيء، ويجد سبباً أكثر وجاهة لموته الشريف . . بعد عمر طويل، نأمل أن يكون في السجن الكبير، وليس في الزنازين الضيقة حتى الغثيان.

توفيق ولمياء

توفيق عبد الله، (أبو أبراهيم) الذي اعتقل مع شريكة عمره لمياء معروف، وحكم عليهما بالمؤبد، كانا يتزاوران كل ستة أشهر، ويقضيان ثلاث ساعات سويةً عند كل زيارة .

ولمّا قيّض لنصف هذا الحنين المحبوس أن يخرج، وتم تحرير لمياء معروف قبل حوالي ثلاث سنوات ومضت إلى البرازيل، لم يستطع أبو إبراهيم أن يرى أم إبراهيم، فهل كان السجن أكثر رحمة ؟! بالتأكيد لا، لكن التصاريح التي يقدّمها الاحتلال حتى يرى المرء وجهه أو تلتقي الروح

ومضى على اعتقال بعضهم أكثر من ربع قرن بالتمام والكمال، كاف لأن يكمل مشهد الجنون والهلع، ويجب أن يكون كافياً لأن تكون قضيةً الأسرى على رأس الأجندة الفلسطينية والأولويات، لأنها قضية مقدسة تخص قطاعاً يمثّل الشرف والعزّة والإيثار والمجد الفلسطيني، وليس كما يريد لها الآخر، قضية قتلة وسارقي سيارات وشواذ. أي علينا أن نرفض رفضاً قاطعاً حاسماً و استراتيجياً ربط قضية الأسرى الأبطال الأشاوس بمسألة الجنائيين واللصوص والمنحرفين، لأن في ذلك إساءة بالغة إلى كل الدم والعرق والسنوات الصعبة الطوال.

إن قضية الأسرى والمعتقلين قضية وطنية إنسانية، لا تتقدم عليها قضية، مهما بلغت أهميتها، بل تتساوى مع الأرض والعرض والمقدسات، الأمر الذي يدفعنا جميعاً إلى أن نعمل، على كل المستويات والساحات، حتى يتم إطلاق سراحهم كلّهم فوراً من دون قيد أو شرط، حتى لا ينفجر الوضع إلى ما لا تدرك نتائجه، ولنتمكن من تصديق القائل: إن ثمة سلاماً يمكن أن يتنامى على هذه الأرض، وإن ثمة إمكانية لأن يتعايش الإنسان مع الإنسان. وحتى لا يأتي الوقت الذي يموت فيه هؤلاء القابضون على جمر القمع والغاز والسلاسل من الجوع أو المرض أو الحريق أو القهر، ونتذكّر أن ثمة مَنْ صرخ، لكننا كنّا عنه مشغولين!!

أبو السُكّر

أبو السُكّر أحمد جبارة الذي بلغ الثالثة والستين من عمره، أمضى لغاية الآن في غياهب السجون ربع قرن، أي ما يقارب نصف عمر إسرائيل!!

الفلسطينية التي تمثّل كل الشعب الفلسطيني تمثيلاً شرعياً ووحيداً، وعقدت اتفاقية سلام مع اسرائيل، ما يعني إعفاء كل هؤلاء المعتقلين، بصرف النظر عن انتمائهم السياسي، من نتيجة ما قاموا به، بصفتهم أبناء م.ت.ف، حتى ولو ظل بعضهم معترضاً على بعض ما قامت به المنظمة، وإلاّ فإن المنظمة تفقد شرعية تمثيلها الجماعي الشامل لكل أبناء الشعب الفلسطيني، أينما وجد، وحيثما عاش.

إن وجود قرابة ثلاثة آلاف معتقل وأسير في السجون، يعني وجود ثلاثة آلاف عائلة في حالة تحفّز واستنفار، لأنهم لم يروا من ثمار السلام ما رأى الآخرون، كما يعني أن هذه العائلات تعيش حياة ممضّة مرتبكة ما بين مطرقة الحاجة وسندان اللوعة والحرمان والقهر المتواصل. فإذا استطاعت عائلة أي معتقل أن «تدبّر» شؤونها الاقتصادية المعيشية، وهذا صعب جداً، فإنها لن تستطيع أن «تخلق» راعياً للعائلة بالمعنى النفسي الاجتماعي أو العاطفي، كما أنها لن تستطيع أن توقف رحلة العذاب الطاغي كل أسبوع أو أسبوعين؛ عندما تشدّ رحالها لزيارة السجن، وتقضي نهاراً كاملاً تحت المطر أو الشمس، وأمام صلف السجانين وشتائمهم وإذلالهم المريع، ووراء حافلات الصليب الأحمر وتصاريح الزيارة بعيدة المنال.. والمهلكة!

لعل عائلات المعتقلين أكثر بطولة من المعتقلين أنفسهم، ولعل المعتقلين شهداء يموتون كل لحظة ألف مرّة ومرّة، إذ إن وجود أكثر من ثلاثمئة وخمسين معتقلاً محكومين بـ «المؤبد» في سجن واحد مثل عسقلان،

المعتقلون والأسرى

لم يذهب المعتقلون إلى قيودهم رغبةً في الرطوبة والجوع والرمل الثقيل، ولم ينشدوا فناء أعمارهم في العتمات والغاز والحرمان الكامل، حتى يصل المشوار إلى نهايته، ويظلوا في وحشة النسيان، وتحت قصف اللعنات والشبهات.

ولم يعرف التاريخ أن رسولاً حمل كتاباً أو سيفاً، دون أن يحمل مَنْ أرسله وزر خطواته أو ثوابها.. ومضامين ما وضع على كاهل رسوله الذي بلّغ أتم ما يكون البلاغ المبين.

كما لم يعرف التاريخ أن صلحاً انعقد، وظلت رقاب المتحاربين تحت شفرات المقاصل والعداء، إلاّ إذا كان هذا الصلح تكاذباً، يخفي تحت رغوته سواطير الموت ونطع الغدر والعذاب.

إن المعتقلين الفلسطينيين والأشقاء العرب في السجون الإسرائيلية، الذين قاتلوا الدولة العبرية منذ العام 1967، وما زالــوا فــي زنازينهــا المرعبة، بريئون، براءة الندى الذي نزل ليلاً على الأرض اليباب ليعيد إليها الحياة، فإذا ما قتلوا اسرائيليين في معاركهم فإن إسرائيل قد قتلت في المقابل أكثر عدداً منهم، والإحصاءات تؤكد ذلك دون مراوغة، وبالتالي، لا معنى لمقولة «الأيادي الملطخة بالدماء».

والمعتقلون الأسرى في سجون اسرائيل لم يكونوا في رحلة تبادل الورود وأغصان الزيتون مع الاحتلال وجيشه، لقد كانت معركة، عمل كل طرف على إلغاء الطرف الآخر وإفنائه، وبالتالي، اشترك فيها مقاتلون من كل أطياف الشعب الفلسطيني وفصائله.. وجاءت منظمة التحرير

أيتام المرحلة

إلى "أبو السكر" وإخوته ..

هو الأصدق من الحبر والأنباء، وهو رمز المنعة والدفع عن الحياض، رافع الظلم وكاسر الظلام، إن جاء وقته لا ينفع عنه بديل، فهو مرود عين الخنساء ومشطها العاجي، ومهلهل الجدران قبل أن يهلهل الزيرُ القصيد، وعُرس عنترة الصعب، وموائد الطائي وحصانه المذبوح للضيوف، به تكتمل الزينة والزغاريد وتفوح الأزرار وتختلج الغلالة على حياء مقصود. إنه منديل الدبكات وسراج الشيوخ الذي يردّ الغيّ والغرباء والطامعين، إنْ أصابه الصدأ يموت صاحبه وتُسبى نساؤه، وتهرّ عليه الكلاب، وإنْ شحذه حامله يصل الاعماق ويركب النجم البعيد ويدرك الندى والزهو والرضى، ولا يطلع الحبق إلاّ من جرابه، ولا يشرب الصقر إلا من شفراته، من أضاعه ضاع وبكى كالنساء .

ربما يحمل به قاطعُ الطريق على القافلة أو هودج الحُرّة البتول، ويقطع به الوحشُ رأس الصغير أو الطير البريء. . . لكنه اذا تساوت الرماح والقواطع فالغلبةُ للإيمان والحق. . . ونحن أضعنا ذلك. . . وتركنا الحامي مثلوماً لا ينفع عكازاً أو لنهشّ به على الأغنام. . . لقد تركناه. . . رغم كل ما ذكرناه كاليتيم .

وثمة ايتام آخرون ضاق بهم تاريخنا .

على العادة والنمط والهندسة المعروفة، مثلما هو لحمنا دون شرايين، وعظامنا دون دم أو نخاع، هو غذاؤنا دون قمح أو لحم أو توت من شفاه النساء الصغيرات، إنه شكلنا الخطأ وقامتنا المنتصبة ورغبتنا في الصراخ على الحواف وفي مغاوير الجمر والشهد في الجسد، إنه نعمتنا ولعنتنا ،كائننا الذي لا يهرم أو يموت. يحاول الأصحاء منا أن ينقوا بيدره من لزوان، ويذيبوا ذهب أعمارهم على صفائحه ليظل سيفه قاطعاً، وحدّه لامعاً، وجفنه مُخضلاً من الفرح والاكتفاء، إنه أضلاع الخطاب وفؤاده الواعي.. إنه الكتاب المحفوظ وجامعنا الواسع الباقي.. لكننا، رغم كل هذا، تركناه كاليتيم.

السيف ..

عزيز قاطع مانع، مصقول بالنار والرقاب، يحمي الأنفة والكرامة والحُرمات، أعزّ الأعزاء، وأذلّ الأذلاء، أشعل النار في الرمال، وأطفأ الأثافي في بيوتات الخنوع، حمحمت له الخيول وعلا صهيلها الأنيق الموّار، وفتح المدائن مثلما حمى الثغور، تمنطقه الرجال فنافح، وهو في غمده عن حمام الدار ونخيل الواحات، وأشاع الزفة والسامر في ليل المضارب والبلدان.. هو ندّ القلم ومكمله ليكون البدر تماماً في السماء، أعتق الرقاب ومنع الجوع والجور، أسس للخلافة والفتوحات، وأقام الحدود، وقارب بين شطري المستحيل، هو قابلة التاريخ وأغنيته وهمّته وبطشه وحكمته وعدله، وبدونه كُنّا سنغترب عن جذرنا وأضاعونا في الأصقاع، وأصبحنا الهنود الحُمر قبل مئات السنين وقبل أن يحلّ الأبيض الباهت على جديلة العذراء.

القلم ..

ليس له بداية أو نهاية، إنه ممتدٌّ كالغناء أو الحزن أو الجنون، يبدأ مع يمام الصباح وينتهي مع صداع الكأس والسهرة الشهيّة، فيه حنّاء الجنة وعرق الأجساد الخاطئة، لاذع كالخيبة والذل والحاجة، وطافح كعين الماء أو فرحة العروس، يدخل إلى حضرته الطاعن والرضيع والقدّ المهدّم اللعوب، مثلما يخرج منه الناس أجمعين، فيما تظلّ الرغبة فيه ما لم يهيمن سلطان النعاس الغامض، يعكس العسل المتدفق من الشعراء أو الذين تعبوا من الظلام والأصفاد، لكنه قابل للتبديل، ويؤسس للنفاق، بل هو جسر التزلّف والانكسار، له بوابات لا تنتهي ونوافذ مضيئة، مثلما يترك بعضَ أعضائه للزمان والباحثين، بعضه أودى بصاحبه غير مرّة، وأكثره للأسواق والعبيد، ومَنْ يمسك تلابيبه يغري بالخلود، أنيق يتفلّت منه الطيب، وسفيه إلى حدّ السفاح، يندفع كالفهد، أو يتمهّل كالأسد الريّان، أو ينام كالرماد في حضن المواقد. . وتذروه الريح، نتشرّبه مع الحليب وفي الصفوف أو في بيوت العبادة، ومن دونه لا حياة ولا حياة.

يغار عليه أبناؤه الذين استولدوه وكان أباهم وجدّ جدّهم، وفي حال قوتهم واشتداد عودهم يفجرونه بعبقرية إلى أن يصبح العُري احتشاماً ومهابة، وفي حال تشظّيهم وتخلّفهم يتلهّون به، ويصبح معينهم في التبرير والتزوير، وعندما يحطّ الخراب ويعلو حطامه ونواحه يتداخل كالألوان حتى لا تستبين لوناً واضحاً. . وما هي إلاّ أيام حتى يصفو ويظهر قوس قزح في فضائه المديد، هو صلاة التائبين وجرأة الخارجين

أيتام العرب

إلى العرب .. الأيتام

قبل أسابيع مرّ شهر رمضان وعيد الفطر، ولم يطرق أحد باب أبي أحمد. جلس الأبناء بملابسهم الجديدة في الصالون، والكعك والفاكهة لم تلمسهما يد! وأبو أحمد لم يجد مكاناً يذهب إليه، ولم تسمع أم أحمد وقع أقدام خارج باب الشقة، ولم يرنّ جرس الهاتف، ومنذ عشر سنوات لم يدخل عربي شقة أبي أحمد باستثناء السفير وصديق قديم هاجر إلى كندا، ولم تحظ أم أحمد بجلسة رمضانية أو عيدية أو أرجوحة لأولادها الذين يتعلّمون النطق بالعربية منها ومن زوجها، ومن المحطّات الفضائية العربية! إنّهم لا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد، وتخيّل -تقول أم أحمد- لو جرى لي أو لأبي أحمد مكروه، ماذا سنفعل، وماذا سيجري لهؤلاء - وتشير إلى أولادها- وتبكي .. فنبكي.

لم أرَ للكآبة والحزن اليابس وجهاً مثلما رأيته في سحنة تلك المرأة، ولم أبك على صغير مثلما بكيتُ على تلك الوجوه الواجمة الصغيرة التي لا تعرفَ عن وطن آبائها وليل البلاد وأعيادها شيئاً .. غير النقاش المقتضب المكسور الدائر بين هذا المنفيّ وزوجته التي أودى بها الحنين. ولا أدري لماذا أرغب في البكاء والصراخ المجنون كلّما تذكرت عائلة أبي أحمد، أو لماذا أتذكرهم الآن، غير أني أرى في يقظتي الآن ملايين الوجوه الطالعة التي يهدمها ضبابٌ وجدران وبرد وغربة لها قسوة لا تشبهها قسوة الحاجة، أو الموت، أو حتى قسوة المرض الممضّ العضال .. وسلامات يا أبا أحمد.

قال السفير مازحاً وهو ينظر إليها : يبدو أنك تبكين على الطعام الذي لن يبقى منه شيء .
حاولنا أن نضحك لنزيل بذلك غمامة البكاء الذي ارتفع صوته ، إذ إن أم أحمد انفجرت بالبكاء إلى حدّ أن أحداً لم يعد يجلس على كُرسيّه ، أو يدري ماذا سيفعل ، ثم رأينا أبناءها الثلاثة يتعلّقون بها ويبكون ، فيما وقف أبو أحمد عند زاوية الصالون يمجّ نار سيجارته ودموعه تتساقط .

*

بعد نصف ساعة أو يزيد ، هدأ روع المرأة ، وتقدّمت إلينا برجاء جديد أن نعود إلى المائدة ، فاشترطنا ، بمحبة ورجاء ، أن تجالسنا .
لعلنا أكلنا ، وربما رأينا أم أحمد تأكل ، لكنّ خيطيْ دموعها لم ينقطعا ، فتسارع لمسحهما ، لكنهما يدفقان من جديد ، بصمت .
– من أين يأتي كل هذا الدمع للإنسان؟ !
في الصالون ، كانت قوالب الحلوى والفاكهة والكولا والقهوة والشاي ، وكل شيء جاهز ونظيف ومرتّب ، وراحت أم أحمد تضع في الصحون وتصبّ في الفناجين وتوزّع علينا ، كأنها ترجونا أن نأكل ونشرب ، وأصبحت الجلسة أكثر إلفة وحميمية وصراحة ، وامتدت أكثر من خمس ساعات . . وخرجنا ، لأنه لا بدّ من الخروج ، لأننا كنّا نريد أن نبقى مع أسرة أبي أحمد حتى تقوم الساعة .

*

أنني لم أرَ رجلاً يدعو بطريقة أبي أحمد الطاغية والبسيطة والمباشرة، كأنّه يعرفنا منذ قرون، والتقانا بعد غياب هائل!

نظرنا إلى سفيرنا لعلّه يجد لنا عذراً، أو يساهم في تغيير وجهة نظر أبي أحمد، لكنه أوحى إلينا بالموافقة .

وصلنا ظهر اليوم التالي بمعيّة سفيرنا الطيّب الأنيق - وبعض السفراء يتمتعون بهذه الصفات- إلى بيت أبي أحمد، ودخلنا خَمْسَتُنا شقته، فاستقبلنا ابناه وابنته، وكان عمرهم يتراوح بين ثماني سنوات ،اثنتي عشرة سنة، وأوسع لنا أبو أحمد في صالون بيته . . وانتبهنا أن طاولة الطعام الموازية للصالون مُغطّاة بالصواني والصحون، ولم نجلس تماماً، حتى جاءت أم أحمد تؤهّل وتسهّل بنا ، فوقفنا ورددنا التحية باحترام بالغ يساوي دفء ترحابها وتهليلها بزيارتنا ودخول البَرَكَة إلى بيتهم ، وأعترفُ أن لسانها الطَلق أخجلنا وأحرجنا ، لأننا لم نستطع أن نُجاريها في المجاملة واللطف وشهد الكلام الصادق الكريم.

جلسنا إلى المائدة، فأصابنا الحرج، لقد بالغت أم أحمد في الكرم! ثمة ستة أصناف رئيسة من الطعام؛ مقلوبة، وبامية، وورق دوال وكوسا، ودجاج محشو، وملوخية، ورز مفلفل مع لحم ولبن عدا القُبّة والسلطات والمتبّلات والمخللات وأصناف الحلوى والفاكهة و . . . بدأنا باسم الله الأكل ، لكننا توقفنا جميعنا عن المضغ، وأسقطنا الملاعق من أيدينا عندما شاهدنا أم أحمد تقف على رأس الطاولة تحمل فوطة المطبخ بيدها، وتنظر إلينا بفرح أو دهشة -لا أدري- وتبكي بصمت.

قلتُ لها مباشرة: ما بك يا أم أحمد، ألا تجلسين لتشاركينا الطعام؟

لكنها كانت زائغة، ولم تنتبه إلى كلامي، فازددتُ حرجاً، وأفلتُّ الملعقة تماماً من يدي . .

لم أعرفه، ولم أعدّ أتذكّر شيئاً منه، غير أن حجر الدمعة تلك ظلّ في حلقي حتى الساعة، بل ليتني أنسى جريان نهنهة دموع امرأته التي أحالت تلك الجلسة إلى «حفلة» نشيج وحنين مجنون . . وبالتأكيد لا أدري أين هو الآن، أو ماذا كان اسمه.

كُنّا وفداً يمثّل اتحاد الكتّاب الفلسطينيين في مؤتمر للمبدعين دعت إليه إحدى الدول الاسكندنافية في ربيع 1993، حيث الثلج يلد خضرته الغامقة، ويغسل، دون قصد، البنايات والشوارع ووجوه الناس.

وقبل سفرنا بيوم، دعانا سفير فلسطين هناك إلى بيته، وعند نزولنا من سيارته، قبالة البناية التي يقطن فيها، التقى السفير أحد معارفه صدفة، على ما يبدو، فاتّخذا زاوية يتمتمان فيها، ويسألان أحدهما الآخر عن أحوال وأمور . وفجأة، تقدّم ذلك الرجل بخطوات واسعة، وعانقنا دون سابق إنذار، وراح يُقبّلنا، كأنه يشمّ فينا شَعر أشقائه الذين فارقهم من عشرين عاماً . . فتراخينا له، وبادلناه العناق بأحسن منه . . ما أمكننا ذلك.

فتقدم السفير وعرّفنا بـ «أبي أحمد» اللاجئ السياسي الذي فرّ من بلده العربي، بعد أن قضى النظام البوليسي هناك على اثنين من أشقائه، وسجن والده! واستطاع أن يصل إلى بلد عربي آخر مجاور، وكان أنْ تزوّج ابنة صاحب البيت الذي استأجره، قبل أن يفطن النظام الآخر ويطارد أبا أحمد وعروسه . . ويفرّا لاجئين إلى هذا البلد الاسكندنافي البارد.

أصرّ أبو أحمد على أن «يعزمنا» إلى بيته على الغداء، فاعتذرنا، لكن إلحاحه وإلحافه وأيْمانه الغلاظ حالت دون أن نفلت من دعوته، حتى

دمع الثلج الساخن

إلى كل غريب

ومشرفة، ثم قال: هناك سأُدفن، هناك سيكون قبري . . وسأظل مشرفاً على البحر من جهة اليمين، والبحيرة من جهة اليسار.

في اليوم الثالث، ذهبنا إلى الخليل في طريقنا إلى الفالوجة، كان يريد أن يرى مسقط رأسه، بعد واحدة وخمسين سنة من الغياب والهجر، ولكن تصريح إبراهيم السعافين لم يمكنه من الوصول إلى الفالوجة، فتصريحه يسمح له فقط بدخول «مناطق» السلطة الفلسطينية وليس دخول «أرض إسرائيل»! وهكذا واجهنا حاجز اسرائيلي منعنا من رؤية الفالوجة . . لتظل حتى هذه اللحظة مكاناً متخيلاً، يكبر ويصغر، يبتعد ويختفي ويظهر، حسب أحوال الروح.

عدنا إلى مدينة الخليل لنصلي في الحرم الإبراهيمي الشريف، هناك حمله والده قبل ثمانية وخمسين عاماً ليسمّيه باسم النبي العظيم إبراهيم أبي الأنبياء .

وعلى مدخل الحرم الإبراهيمي، شاهدنا عشرات المستوطنين، بتلك القامات النحيلة، والبنادق الثقيلة، واللحى الطويلة، والعيون الممتلئة حقداً وشراً وشراسة، فمنعونا من الدخول للصلاة، ناقشناهم قليلاً، فإذا بفوهات البنادق تنتصب، ولهجة الكلام تشتد . . لم ندخل ولم نصلّ، وعاد صديقي بخيبة أمل شعرتها على أطراف أصابعه .

في طريق العودة إلى رام الله، كانت المستوطنات المزروعة على أكتاف الجبال والهضاب المحيطة بالطريق تترك أثراً عميقاً ومؤلماً في القلب .

لا شك أننا فكرنا معاً، عبر صمتنا ذاك، بغرفة محمود درويش في بيت سميح . . تلك الغرفة التي تبدو أكثر اتساعاً وعمقاً من كل هذا .

- لم يُجب . . كان شارداً .
- قلت : ببالك شاعر صهيوني كبير ، أطلقوا اسمه على أكبر شوارع مدنهم الجديدة ، وهاهم يقيمون مدينة تخليداً له ! ! فردّ فوراً : وشعراؤنا يموتون في المنفى ! !
. . في عكا ، دخلنا جامع الجزار ، وبعد صلاة الجمعة ، ذهبنا بصحبة بعض الأصدقاء لتناول السمك قبالة الأسوار المقهورة التي قهرت نابليون ذات يوم .
وليتنا لم نذهب ، لقد حوّل الساعتين ولحظات الجلسة الخرافية الرائعة إلى مناحة كربلائية . . على عكا وأهل عكا .
وأخيراً ، وصلنا إلى الرامة التي تحمل في يمينها البحر الأبيض ، وفي يسارها بحيرة طبرية التي لها بطن الغزال -كما يقول الصديق الروائي يحيى يخلف- لنجد في بيت سميح الشاعر الكبير محمود درويش وعدداً من مبدعي فلسطين 1948 . . ولتجتمع دهشة محمود درويش الذي لم يزر رامة سميح القاسم منذ أربعين عاماً ، مع دهشة إبراهيم السعافين الذي يدخل الرامة وشمال فلسطين للمرة الأولى . . فالتغيرات و«الهضم الجغرافي» هائل ولا يمكن تخيّله .
وفي بيت سميح القاسم ، هناك على تلة «جبل حيدر» ، الذي يُشرف على البحر والجليل والبحيرة ، قال القاسم : تعالوا معي ، أريكم الغرفة التي بنيتها لمحمود منذ ثلاثين عاماً ليقيم فيها وأسميتها شقة محمود ، وأضاف مشيراً إلى محمود : انتظرتك طويلاً هذه الغرفة يا صديقي !
كان المشهد مشحوناً ومحتقناً بالمشاعر التي لا توصف عندما أشار سميح القاسم من نافذة بيته الغربية إلى تلة قريبة مزدحمة بالخضرة ، عالية

وأخيراً، حصل صديقي وأستاذي الدكتور إبراهيم السعافين على «تصريح زيارة» إلى «مناطق» السلطة الفلسطينية. فرح حتى اختلطت مشاعره، وحضرت قصص أبيه وأُمه عن الفالوجة و«مقام سيدي أحمد» و«الضبع الأسود» و«سوق الخميس» و«أم النعاج» . . وأمضى ليلة سفره الى فلسطين قلقاً، استعصى عليه النوم، وجاءت اليقظة كاملة ناشطة. لعله غضّ الطرف عن «لغة» التصريح التي كانت بالعبرية الفصحى، غير أن التواريخ كانت بالعربية البائدة، أو بالإنجليزية الحديثة الرشيدة!
وصل إلى الجسر، ودخل رام الله !! تجمّدت أحاسيسه كالتمثال الهشّ أو عرائس الجليد. وفي نهاية السهرة الأولى، عادت إليه حرارة الوعي، فبكى حتى رأيته طفلاً ضاع من يد والده . . وتاه.
في بهو فندق رام الله الصغير، وجدته صباح اليوم التالي في كامل زينته وأناقته، وبادرني بالقول: إلى أين سنذهب . . طبعاً إلى الفالوجة، ها؟!
قلت: اليوم الجمعة، وسنذهب إلى حيفا وعكا والرامة لزيارة سميح القاسم، فقد اتفقت معه ليلة أمس على ذلك، فثمة دعوة على الغداء على شاطئ عكا.
ركبنا السيارة، وخلال ثلاث ساعات طوال الطريق كان «مجمّداً» وحاداً في كلماته القليلة التي تنطلق من فمه كالشهب الصغيرة الحارقة، لم يكن مصدّقاً لما يرى، ولم يستوعب ما سمع وما لمس وشاهد!!
وصلنا إلى حيفا؛ من «وادي النسناس»، الذي تتوّجه «قبة البهائيين» ودرجها الأخضر المعجز إلى «الحلّيصة» «فالميناء»، وقصدنا عكا مروراً بـ «كريات آتا» و«موتسكين» و«كريات بيالك».
- هل تعرف مَنْ هو بيالك ؟

شقة محمود في بيت سميح

إلى أستاذي د. إبراهيم السعافين

وفي صبيحة هذا اليوم، استيقظ الجزراوي بكامل عافيته، حيث حمل الفوطة واتجه إلى مرحاض غرفة السجن، خلع ملابسه، وفتح صنبور الماء، فهبط من ماسورة معلّقة في السقف ماء بارد، استحم الجزراوي، وأصبح بإمكانه أن يصلي صلاة الفجر جماعة مع المعتقلين الذين انتظروه حتى يزيل جنابته.

صلّى الجزراوي الصبح، وفتح ذراعيه إلى السماء، وبعد أن تمت إدارة السجن «العدد»، وتناول المعتقلون فطورهم، كان الجزراوي يجلس مع اللجنة الوطنية للمعتقلين التي تقود الأسرى، يحدّثهم عن «خاتولا» والقط الأسود الذي كان يتبختر بين الأسرّة.

الحقيقي. لا . . يا «خاتولا»، لن تأخذي قلبي إلى غرف الخيانة، ولن تجعلني شهوتي خائناً حتى ولو كانت لك عينا الخروبة الحلوة، أو كنت خارجة لتوّك من دغل الضباب مبتلّة الضفائر، حمراء الوجنتين، مندفعة الصدر . . ولك أصابع اللبلاب وشفاه طفلة.

لا . . يا «خاتولا».

لكن «خاتولا» تدخل على الجزراوي، وهي طلقة الوجه، فيبتشّ لها، تتشاغل بجرحه والاطمئنان عليه، وتمرّر بظهر يدها أعلى بطنه حتى تصل إلى ذقنه، وبكلتا يديها تحتضن وجهه الساخن وتقبّله، ثم تتركه بدلع مفرط، وتغلق الباب وراءها.

لقد هزمتك يا جزراوي!

لا، لن تهزميني.

بل هزمتك!

حمل الجزراوي نفسه ودخل إلى الحمام، ونظر إلى المرآة، وهو زائغ دائخ . . ودون أن ينظر إلى الأسفل، أنزل بنطال بيجامته وسرواله الداخلي، وبيده اليسرى مسك عضوه ومطّه إلى الأمام، وبيده اليمنى حمل شفرة الحلاقة وهوى بها . . وصرخ!!

*

ربما سمعوا صراخه، ربما أسعفوه، وربما مكث شهراً آخر في «المعبار» لم ير فيه «خاتولا»، لكنه عاد إلى السجن منكسراً، حتى اعتقد الأسرى أن أطباء «المعبار» حقنوه بمرض غامض، جعله ينزوي وينكفئ على نفسه.

أيها الجزراوي، إنها أحضرت صحن الفاكهة، وبدأت تضع الموز بين شفتيك، وقطع «الكاكا» بين أسنانك؟ ألم تلحظ غصن يدها وهو يمسح وجهك وأنفك وفمك بمنديل مبلول؟ ماذا تريدين يا «خاتولا» مني؟ لقد قتلتُ ثلاثة جنود من جيش إسبارطة الذي يحتل أرضي، فكيف لك أن تكوني أمّاً صغيرة أو غزالة تخرج من أدغالها لتحرس عافيتي بهذا الحنان؟

*

تأتي «خاتولا» لتبدّل الشاش الغارق بالدم واليود، وتمسح الجرح مراراً، فلماذا تسري تلك القشعريرة في بدنك يا جزراوي؟ لعلك تبالغ في أن «خاتولا» لمست عشّك؛ أسفل بطنك بيدها، ربما كان ذلك عارضاً غير مقصود، لكنّ «خاتولا» أعادت الكرّة غير مرّة، حتى شعر بيدها تسحب الغصن من كيس لحمه وتمسدّه، فلماذا استسلمت يا جزراوي؟ هل كنت تحلم؟ أم كانت «خاتولا» تختبر فحولتك، أو ردّة فعل فحولتك، لأن العملية الجراحية على صلة بجهازك التناسلي؟

لا! إن «خاتولا» تتعمد أن ترشّ البرق على رجولتي، وكادت تمرّغ فحولتي على شفتيها، لولا أنني أسندت ظهري ودفعتها بغير وعي مني، لقد حاولت بالفعل، ولم تكن تلك تهيؤات المرض، أو مغالطات الخدر، فماذا سأفعل؟

يحق للجزراوي، ابن التاسعة والعشرين عاماً، أن يخشى كما خشي يوسف من زليخة، لكنه كاد يهوي في «شُبّاكها» الذي سيودي به إلى السقوط. إن «خاتولا» هي الطُعم الذي سيأخذني إلى الزرد المميت والقيد

أيها المصلوب بالأحذية الثقيلة على أرض الدورية الشرطية المُوَلْولة في طرقات المدن الهجينة، يأخذونك الآن إلى مشفى «المعبار» حيث الوَجوه نافرة، والضمادات سياط، والإبر شواظ من نار، سيشقون بطنك في هذا المشفى القميء الذي لا يصلح للكلاب.

هذا «المعبار» الذي كان اصطبلاً لخيول الانتداب جعلوه، بعد أن دهنوه بالأصفر ووضعوا فيه خمسة أسرّة، مشفى لعلاج ثمانية آلاف أسير فلسطيني وعربي.

عليك أيها الجزراوي أن تكون في مجزرة «المعبار» لحمة تصلح لموس الساديين. وعليك أن تتحمل كل التوقعات والاحتمالات، فربما ما قالوه عن «المعبار» صحيح. فهل سيكون لحمك صالحاً لاختبار دواء جديد؟ أم أنهم سيدربون الأطباء الجدد على ساحات بطنك وشقوق أمعائك؟ أم أنهم سيحقنون شرايينك بفيروس غامض يأكل بدنك، ويهشّم عظامك، ويحيلك إلى حفنة من عدم؟

لا خيار أيها الجزراوي إلا أن تحتمل، فالرب واحد، والموت واحد.

*

استيقظ الجزراوي بعينين غائمتين، فرأى أول ما رأى قطاً أسود يتبختر بين الأسرّة على الأرض الكابية، ودخلت عليه «خاتولا» الممرضة الخلاسية التي لها بشرة الرضيع، ووجه التفاح، ومن دون أن تكلّمه وضعت ميزان الحرارة في فمه، ومسكت رسغه بأصابعها، ثم ذهبت. هل هذه الممرضة يهودية؟ كيف لها أن تكون بهذه البشاشة؟ ألم تنتبه،

«الكارادور» الطويل، على أن تقوم إدارة السجن بنقل السجين الجزراوي الذي يحمل رقم (4867)- حيث المعتقلون أرقام في سجون إسرائيل- وبعد أن هدد المعتقلون بالإضراب عن الطعام، وتعطيل مطبخ السجن والمغسلة، والاعتصام في الغرف، والتوقف عن الخروج ساعة في ساحة السجن والتي تسمى «الفورة»، وعدت إدارة السجن بعرض الجزراوي على طبيب السجن غداً صباحاً.

وبعد ظهيرة الغد سمحت إدارة المعتقل لأسيرين بحمل الجزراوي إلى عيادة السجن، فقام طبيب شاب متباطئاً كارهاً عمله بالكشف على الجزراوي الذي كان يئنّ من ألمه، ويتكوّر كالكرة جامعاً ذراعيه على بطنه، صارخاً بصوت مكتوم، وبعد حين، قال الطبيب لجندي أن يعود الأسيران، لأن الجزراوي سيبقى.

دخلت سيارة «البوسطة» إلى ساحة السجن، وهي سيارة معدّة لنقل الأسرى من مكان إلى آخر، لها نوافذ محصّنة بشبكة حديد، متوسطة الحجم، لها لون أزرق، ومكتوب عليها باللغتين الإنجليزية والعبرية «بوليس» مع نجمة داود الزرقاء.

وضعوا الجزراوي على أرض البوسطة ممدّداً دونما فرشة أو غطاء، وجلس على جانبي مقاعد البوسطة أربعة جنود بكامل عتادهم، ووضع أحدهم قدميه على الجانب الأيسر للجزراوي، حتى يثبته في مكانه خوفاً من أن يتدحرج عند انطلاق البوسطة، ما شجّع الجندي الآخر على أن يحتل ببسطاريه جانب الجزراوي الأيمن.

*

لم تكن كل هذه السنوات كافية حتى ترتوي هامة الحقد من امتصاص نسغ الوردة. ماذا يريدون أكثر؟

*

منذ أحد عشر عاماً لم تدخل الشمس إلى كوّة الزنزانة، ولم تهجر الحمامة هديلها الحزين، ولم تتنفس الأضلاع في حواكير البلد، والصغار يذرعون الطرقات غير آبهين بالحجارة التي تشظّت، وأصبحت لعبتهم المشتهاة. أحد عشر عاماً والقضبان تضيق على المساحة المعبأة بالرطوبة والبرد والكوابيس.

كان الأمل الوحيد، وما زال، أن تتم عملية تبادل أسرى فلسطينيين بجنود إسرائيليين، وإلا فستسقط ريشة إثر أخرى من جناح العمر.

وسيقضي السجين «المؤبد» كاملاً، يقدّ عمره ساعة إثر أخرى، على رمل الأيام التي لا ترتوي.

ورغم الحيطة في اللباس، وترك التدخين، والإكثار مما تيسر من طعام، ورغم الحذر من كسل الكآبة والإصرار على التريّض في ساحة «الفورة»، فإن خاصرته بدأت تنغص عليه لياليه.

انتقل، بل اتسع وجع الخاصرة ليلفّ كالحزام الناري جذع الرجل، وباتت مسلاّت الألم تقحف أمعاءه، وتخيطها بخيوط من مسد..

ولم تفلح نصائح الأخوة والرفاق الذين فشلت كل تنبؤاتهم بماهية مرضه، حتى منتصف تلك الليلة!!

أصرّ المعتقلون الذين وقفوا خلف بوابات غرف السجن، وعلى امتداد

سرير الدم

إليه .. دون أسماء

العمارة التي نقوم ببنائها قوية ومتينة وجميلة . . لأنها ستصبح «ورثة» لأولادنا . . وللاجئين المساكين الذين سيعودون . . لهذا كنتُ أعود من الورشة تعباً . . دون حيل . أما عندما كنتُ أسمع أن العرب والمسلمين باعوا البلاد ومشوا في الصلح «معهم»، فإنني أقول في نفسي: إن العمارات التي نبنيها هي لليهود، فلماذا أُتعب حالي . . لهذا كنتُ أرجع من الورشة نشيطاً، لم أبذل أيّ جهد . . هل فهمتم، يا جماعة الخير؟!
لكن أحد الخبثاء الجالسين في صدر الديوان علّق قائلاً: إن تراجع العرب والمسلمين وهزيمتهم لصالح أم حسّان، أليس كذلك يا جماعة؟!
يضحك الجميع . . وما زال أبو حسان نشيطاً . . جداً .

لم تكن «مسعودة» -أم حسّان جارتنا- جذلة ناشطة، والدموية ردّت إلى وجهها، كما يقولون، مثلما هي عليه هذه الأيام! رغم بلوغها الستين، والسبب، كما يتندّر رجال حارتنا، عند كل مساء، في ديوان العائلة، أن أبا حسّان «راجع شباب» ما شاء الله!! ولكن، كيف كان ذلك يا حسين يا أبا حسّان؟

يقول حسين أبو حسّان، وقد بلغ الثالثة والستين من عمره، إنه يعمل في ورش البناء داخل اسرائيل منذ ثلاثين عاماً، وكان خلال تلك السنوات يعود يومياً من الورشة وقد هدّه التعب، ونال منه الإرهاق، فما أن يصل إلى البيت، ويغتسل، ويضع بضع لُقيمات في فمه، حتى يذهب في نومه . . حتى أن مسعودة، أعربت عن سخطها وتبرّمها من عدم اهتمامه «بالبيت» فترات طويلة . . فهو -كما كانت تقول-: من الفَرْشة للورشة!! أما في الفترة الأخيرة، فإن أبا حسان يعود من الورشة كأنه لَم يفعل شيئاً، فيغتسل ويأكل ويسهر، ويتابع شؤون البيت كاملةً!! حتى أنّ مسعودة باتت محسودة من جاراتها «الختياريات» على نشاط زوجها . . الله يعطيه العافية.

والسبب يا أبا حسّان؟؟

يعتدل أبو حسّان في جلسته في الديوان، وبعد أن يعيد التحية على الموجودين مرتين وثلاث . . ويبشّ في وجه هذا ويهشّ لذاك، ويعيد ترتيب قمبازه ليستر سرواله الأبيض الناصع . . يبتسم، ويصمت قليلاً، ويقول:

كنتُ، وكلما سمعتُ أن العرب والمسلمين سيحققون النصر على اليهود، وتعود البلاد، كنتُ «يا إخوان» أشدّ حالي، وأحرص على أن تكون

سر سعادة مسعودة

إلى عمّ حارتنا "أبو حسّان"

سبع عشرة سنة في المعتقلات الإسرائيلية، وذبحتان صدريتان، ووجه متعب مهدوم، وامرأة تعمل في مشغل صغير للخياطة، وولدان، وبنت ذات ضفائر كأنها أدغال الغيب . . كل هذا لا يكفي لكي يعود محمد أحمد نزال (كامل) من البلد الشقيق سوريا إلى قلقيلية، ويحصل، مثل باقي خلق الله، على (رقم وطني)! ولا سبب سوى أنه لم يدخل في دائرة هذا أو ذاك، ثم آثر السكوت، بعدما اكتشف سطوة الهامش، وعمق البئر السوداء.

ومحمد الذي ماتت أمه آمنة قبل بضعة أشهر، وأردتُ أن أعزّيه، كان غير حزين على وفاتها، رغم أنه لم يرها منذ أن تم تحريره العام 1985 في صفقة تبادل الأسرى، وبالتحديد عند آخر زيارة كانت قد زارته فيها في معتقل نفحة الصحراوي، لم يكن حزيناً بقدر ما كان محبطاً ويائساً، وعزاؤه، كما قال لي ببرود مكسور، أنها ماتت في البلد!!

يا محمد! الذي نقلوه إلى المستشفى بعد الجلطة المباغتة الثانية، يا مَنْ أمضيت عشرين يوماً في غرفة الإنعاش المكثف بين ا لموت والحياة، جاءني صوتك الذابل المرتخي، الذي ينوء بالدمع الذابح على أطفالك الثلاثة، خوفاً من أن تموت في مخيم اليرموك، وهم لم ينقضوا عن أجنحتهم عند الحرم، وأمهم الغريبة لا تعرف أحداً. لقد وصل إليّ صوتك الرجراج الضعيف تطلب رقماً وطنياً كأنه الخلاص الأبدي الأخير. أخاف يا ابن خالتي ألاّ تحصل عليه، وأخاف أن أبكي كثيراً كثيراً . . وكلمات الشاعر تطحن قلبي وهي تقول :

كأن شيئاً ما يقول هنا: الحدود . .

كأن شيئاً ما يقولُ . . هـذا لكل اللاجئين

وكلّ هذا لليهود .

كل شيء لهم

إلى (كامل) محمد أحمد نزال

وعندما عاد أبو اسماعين من صلاة التراويح، كانت أم اسماعين قد قَرصت خدّيها، ومررت مرود السنام على عينيها، وتمنّت عليه، بصمت، أن ينظر إليها، لكنه، وبعد أن خلع قمبازه والحطّة والعقال وجوربه . . توجه نحو التلفاز، وكان بحيوية دلّت على نشاط يُبشّرُ بخير!! أضاء التلفاز، ولفّ على الفضائيات، واستقر على نشرة الأخبار التي أكدّت أن المفاوضات ستُستأنف غداً في أمريكا . .

تمتم أبو اسماعين بكلمات ساخطة، وضغط على زرّ التلفاز، فاسودّت الشاشة . .

أدركت أم اسماعين، التي كانت تجلس بعيدة عنه، أن نشرة الأخبار أفسدت ليلتها، وأنها «هدّت حيل» أبي اسماعين . . فرفعت يديها إلى السماء، قبل أن تردّ اللحاف على وجهها، وهي تدعو على التلفزيونات، وعلى تلك التي تُسمّى مفاوضات!

يده . . حتى يخرج من صمت حزنه القاسي، لكنها تذكرت، فجأة، أن أبا اسماعين لم ينظر إلى وجهها منذ استشهاد اسماعين، وأنه صار يتأخر في مرج الزيتون حتى المغيب؟!

وأم اسماعين التي كانت «تحضر» الأخبار، وتتابع المسلسل اليومي، الذي ما أنْ تنتهي الحلقة اليومية منه حتى يكون النُعاس قد مضى بها إلى الفراش، لم تعد تفتح جهاز التلفاز منذ صعقة الخبر، وامتلاء البيت بالمعزّيات النائحات.

وعندما أعلن الراديو أن غداً هو أول أيام شهر رمضان نزلت دموع أم اسماعين، ولم تستطع أن تضع في فمها لقمة واحدة لحظة الإفطار، لكن أبا اسماعين، وبصوته العميق، أمرها، كالعادة، أن تمسح وجهها بالرحمن، «وتْسَمّي وتوكل» . .

لعلها أكلت، وَعادت رتابة السحور والإفطار، ومضت الأيام، كما هي ولحية أبي اسماعين تزداد بياضاً وكثافة.

*

اليوم هو الخميس! فلقد رجع أبو اسماعين من «الوَطَيات» مع تعلّق الشمس في قلب السماء، وبعد صلاة العصر، توجه إلى «المزيّن» الحلاّق أبو عجرة، الذي رحّب به . . ودلح على لحيته كمية كبيرة من العطر الرخيص . . الذي لم يعجب أبا اسماعين، لأن العطر ربما يفسد الصيام . . مَنْ يدري؟!

وما أن دخل أبو اسماعين من رمانة البيت حتى لاحظت أم اسماعين أن لوحة زوجها متغيّرة . . آه، إنه حالق؟ . . الحمد لله.

على أية قنطرة سترمي هذه الثاكل شَعرها الخشن؟! وعلى أية أُغنية عتيقة سيركب هذا الأب سرجَه المتهدّل، قبل أن ينعف دموعه الصعبةِ، تحت الخرّوبة العجوز؟!

ستنتفض لحيته، وترتجف يداه، وهو يمسح بكفّه الطيني هرَم خدّه، فلا يشعر بوخز إبر وجهه الشائب المنتصب! يجول بعينيه الغائمتين بين سطور الزيتون، وقدماه تفخت أرض الربيع التي افترعها لتوّه، ببغلته المستسلمة.

سيُنهي حراثة المرج، وسيفغم حبّة البندورة، ويطحن بصحن قبضته فحلَ البصل، وسيبرد عرقُ جبينه رغم الموقدة الصغيرة التي يطبخ على أوارها إبريق الشاي الفاحم.

وسَيصلي الظهر، ويطيل التأمّل قبل السجود، وبعد الركوع، وسيذهب بعيداً، بعد أن يُنهي تمتمة الفاتحة التي يُردّدها عشرات المرّات، منذ أربعين عاماً، عن ظهر قلب.

وعند المغيب، يكون قد طبخ الشاي مرّة أخرى، وصلّى العصر، وركب دابّته، وعاد إلى البيت. وبعد أن يربط البغلة، ويُلقي أمامها صاع التبن والشعير، ويمسّد رقبتها البنيّة، يشطف يديه ووجهه ويُحسن الوضوء، وينفض يديه، قبل أن تناوله أم اسماعين البشكير النظيف، ويلبس قمباز الديوان، ويلفّ حزامه، ويتنحنح قبل أن يدلف من باب بيته إلى الجامع.

منذ شهر، لم يحلق أبو اسماعين لحيته التي اعتاد أن يكشطها بعد صلاة عصر كل يوم خميس.. ولعل هذه إشارة إلى العجوز الثاكل بأن أبا اسماعين لن يمدّ يده الخشنة إلى ذيل ثوبها الطاهر الطويل!

وأم اسماعين، رغم حزنها اليابس، تريد لهذا الشيخ أن يفعلها، ويمدّ

"لحية أبو اسماعين"

إلى الشهيد عصام جودة

لكن والد عروسه وأهل البلدة حملوها إليه، وطبعت بالعجين ورقة الليمون على بوابة الدار، ودخلت.
وبعد غيمتين من الأغنيات، وقف السؤال بينهما، وسط فوضى الحرير، وشعاع العطر الساطع!

*

نام، أو هكذا تراءى له، لكن طيراً شبّ من بين فخذيه، أيقظه، ونهض به.. وسار أمامه إلى حيث كان النبض يتحرّق بالكمّثرى!، حطّ عليها وأخذ منها أوصالها، وشرب آخر قطرة من نرجسها، كأنه أيل فرّ من براري كنعان، قبل أربعين قرناً، يصل الآن إلى جدوله المسحور.
اشرب أيها الأيل من رقرقة الكريستال السائل، تلمّظ بسواحل الابطين، وارشف ريحانة هذا المخضلّ بدمع الحبق، وتزيَّ بعنف الصقر، يا سيد الغابات المحترقة!! أيها الناجي الوحيد من اكتمال الليل المبهم! أيها المُغنّي على ضفة النارين بالناي الجليل. اشرب أيها الأيل من صحن البيت المليء بدهن السراج الممهور بالحرقة وزيت الشهاب.
اتبع أيها الأيل ذيل النجمة وبوصلة النيازك، واحمل هداياك من حقلك الليلي إلى كهف النهار.. وادخل بقرنيك المتشعّبتين حتى أنسجة المستحيل، وأعلن هناك مذبحة الخوف، فالقيامة ممكنة، وها هو البوق يصوّح في الأشهاد.. فاتبع شبق الأعناق الطائرة إلى سكّر النار.

الشرسة، وعلت به حُمّى العاصفة، كأنما اختلط الجمعان بين يديه، واصطهدت الساحةُ، تبشّر بالقيامة. . وسقط كأن ثلجاً ينزّ أسفل بطنه، فارتخى على الأرض.

*

ربما استيقظ، وربما رأى الملاءات البيضاء، ووجه الممرضة، وأحس أن قطناً صلباً يمسك أعضاءه، فتجمدت شفتاه، وخاف أن يكون ما كان بالفعل.

ولم تفلح كلمات الأطباء في شرح الحالة، وأن ثمة أملاً بعيداً. . بارقاً بأن الحال ستعتدل، وستعود الأفعى إلى فحيحها الناعم.

نسي كل معاني النضال والوطن، ولم يستطع أن يواسي نفسه، أو يعزّي الموعد القريب، ورفض أن يزوره أحد.

نقلوه مع جرحى آخرين في سيارة الاسعاف، إلى مشفى في بلد قريب، وهناك، وبعد الفحص والمعاينة والتبؤّر في التقارير والنتائج المخبرية، أيقن أنه سيفقد الرجل وإلى الأبد.

بعد خروجه من المشفى، حجّ إلى بيته كل الناس مهنئين، وفجأة أعلن والد خطيبته أن العُرْس سيكون الخميس القادم. أما هو فلم يدر ما يقول، وأصاب الحرج أهله، واختلط صوت التهاني بالزغاريدَ المتقطعة الخجولة.

وحده، كان يتحسس البقعة المعطوبة، ويدرك كم سيكون مخذولاً. . والعرق البارد يتصبب من جبينه.

أنّى تكون لي فرحةُ العرائس، وأنا أدخل بردَ الجدران بلا غصنٍ أو أفعى؟

*

حمامةٌ تمدّ عنقها في بياض الليل، تتخيل كيف ستتمطى غضاريفها لتصبح باقراً يجرف ويذرذر ويسحق، حتى بلوغ الغفوة..
وهذه ليست صورة عن الفحولة، بل هي عناد الوجود، وموطنه الأول.
أما الحوذيّ الشاب فلم يركب حصانه بعد، ولم يمتحن نبتةَ الأصيص، كان على موعد مع وجه البلّور، بعد عامٍ أو أقل، ولم يكن يدري أنهم سيجتثون قصبَ السكر من الحقل.

*

كان في الصف الأول من المسيرة الهائلة المتأجّجة بالأناشيد والرايات، وراح حيث تسير الأقدام، وحدها، إلى موقع الاشتباك.. أشعل الفتيانُ إطارات عباد الشمس، ووضعوا الحاويات ستائر حديدية تقيهم شرَّ الدُمْدم والرصاص المقنّع بالبلاستيك الأسود، وأقاموا المتاريس الصخرية، وابتدأت حصة أخرى في يوم دراسي دامٍ من أيام سنة الانتفاضة الجامعة. كان يقذف الحجارة، ويتقافز كالنسرِ بين موجات الغاز ورشّات الرصاص، وكان لا يلوي على جريح قبل أن يسدّد الحجر جيداً، كأنه يقول في نفسه: الثأر أولاً.. وسالت جبهته كأعراف الخيل بالندى أو الشهد، وتعكّر دمه بالطحين الخانق، ولفّته الدنيا بأعاصيرها

عنق النار

إلى الجريح محمد سميرات القيسي

وقلقيلية التي أنبتت الرجل الضمير «أبا علي إياد» ظلت أرضها تنبت أشجاراً شهيدة تموت واقفة . . ولا تركع! وإنّ مَنْ يرضع من برتقالها البلدي كأنما ينغسل قلبه من كل جُبن وسواد.

هذه قلقيلية التي أُحبّها، وأجاهر بمحبّتها وانتمائي إليها وإلى زفّاتها وحاراتها وأهلها، من «صوفين» شرقاً إلى «كنايات دحبور» غرباً، ومن «بيارة أبو الهزّاع» جنوباً حتى «جنانة الحيوانات» شمالاً. أحبُّ فيها كل شيء، من «واد أبو اسكند» حتى «الراهنات»، ومن «الرزّازة» حتى «واد الصراصير»، ومن «واد الفُقع» حتى «الجامع العتيق»، ومن «السوق» إلى «المسلخ»، ومن «البيادر» إلى «الملعب»، ومن «السعدية» إلى «المرابطين»، ومن كل ذرّة إلى كل ذرّة.

قلقيلية، التي ودّعت خمسة شهداء مطلع الشهر الثاني لانتفاضة الأقصى، مرة واحدة، اعتلوا قائمة الشهداء مع الذين سبقوهم، تضيف أسباباً أُخرى لمحبّتها والانتماء إليها والتهليل لاسمها، وأنا على يقين أن قلقيلية لا تنام على ضيم، بل ستجعل كل برتقالة قنبلة في وجه الخونة والساديين، وستكون كل ورقة ليمون عَلَماً يرفرف في سماء البلد وقلبها الحزين، وستجعل كل جنازة عُرْساً صعباً وزفّة لا تنتهي، حتى يُبشّر «زامور» البلد الناسَ؛ كل الناس الطيبين الرائعين الصادقين، أن هَلال الحريّة قد طلّ، وغداً عيد آخر، هو عيد دولة الشهداء الأبرار، وعاصمتها القدس . . التي تنتظر.

في قلقيلية ما يوحي إلى الأعراس! ليس لأن فتيانها يولدون وهم يعرفون كل أشكال الرقص الفلكلوري والدبكة الشعبية، ويحفظون، عن ظهر قلب، دلعونا وظريف الطول، وليس لأن الزفّة القلقيلية، لا تعادلها زفّة في الأرض!! بل لأنّ أعراس قلقيلية مختلفة وكاوية وعالية، وللعرائس فيها رائحة الملائكة وزهر الليمون.

قلقيلية سرّ الأرض التي نهبوها عشيّة النكبة، فذهبت إلى شرق الجبال لتزرعها برتقالاً وعنباً، وتضع في حضن كل صخرة زيتونةً ومسكب «شجّيرية»، وتحيل الصوّان إلى بيارات مُمرعة، والحواكير الحجرية الجَرداء إلى مروج لليمون واللوز.. ولم تترك قلقيلية شبراً إلاّ وترنّق بالخضروات والفواكه الموسمية البعليّة، أو التي وصلت إليها مياه الآبار الارتوازية، الأكثر في فلسطين، لتجعل براريها لوحة مكتملة الاخضرار والندى.

قلقيلية التي اقتطعوا من لحمها عشرة آلاف دونم العام 1948 اتسعت، وحملت عن يافا بياراتها وبرتقالها الحزين! بعد أن قدّمت كوكبة مكتملة من الشهداء، وشهدت الكثير من المعارك التي امتدت من راس العين جنوباً حتى الطيرة والطيبة شمالاً، وملَبِّس وكفر سابا وغابة عزون غرباً. وظلّت قلقيلية تلوّح بقنديلها في ليل النائمين، ما دفع الدولة العبرية العام 1956 إلى التسلل ونسف «العمارة» أو «المقاطعة» على رأس مَنْ فيها، فاستشهد سبعون رجلاً غير منقوصين! وقبل حرب حزيران المشؤومة ببعض سنوات، حاولت إسرائيل، غير مرّة، نسف محطات الوقود في قلقيلية، وكذلك تفجير عدد من الآبار الارتوازية التي يبلغ عددها أكثر من خمسين بئراً في محافظة قلقيلية.

أعراس قلقيلية المختلفة

إلى شهداء قلقيلية

طبيب المستشفى في المدينة أنها في حالة انهيار، وأجهضت، وحالتها صعبة .

أما الأب الثاكل فقد كان عائداً إلى بيته، قبل أن يقف اليوم في صدر الديوان يتلقى العزاء بكل أولاده مرة واحدة، وقبل أن يبدو ساهماً محمرّ الجفون ذاهلاً .

أما اولئك الأطفال العشرون، أبناء الصف الأول ابتدائي، فهم زملاء محمود، جاءوا ليقدموا العزاء لأهله . دخلوا المكان خاشعين كأن خبر وفاة زميلهم هجّر طفولتهم، وأبدل ارتباكهم وسذاجتهم بثقة وهدوء . تقدموا من والد محمود، ابن صفهم، ومدّوا أياديهم الصغيرة مصافحين، دون أن يقولوا شيئاً . . غير أن واحداً منهم، وبعد أن أنهى مصافحته، استدار وسأل الرجل المحزون قائلاً : (شو يعني مات؟ ثم استدرك : وإذا لم يعد فسأذهب أنا إليه وأزوره عند الموت) .

وما كاد الطفل ينهي كلامه حتى تقاطرت الدموع من عيون الرجال؛ كل الرجال الذين كانوا في الديوان يتابعون هذا المشهد .

أما المشهد الذي لم يلحظه أحد فهو، بالتأكيد، مشهد الأم بعد أن استيقظت من خدر البنج، إثر عملية الإجهاض التي أجريت لها .

عشرون طفلاً في الصف الأول الابتدائي اصطفوا بشكل منتظم، ربما لأول مرة، وهم يلجون بوابة ديوان آل زيد في مدينة قلقيلية، كان الضحى قد اكتمل شروقه، وتم دفن الطفلين الشهيدين: محمود (7 سنوات)، وشقيقه محمد (6 سنوات) ليلة أمس، ووقــف والدهما مع جموع المعزّين مشدوهاً كأنه تمثال يؤدي حركة لا إرادية في مصافحته معزّيه.

ليلة أمس، وبالتحديد ساعات الغروب، كانت المواجهات الطاحنة على المدخل الجنوبي لقلقيلية في كامل ألقها، تتمّم انفجارها العبقري ردّاً على استشهاد سامر العورتاني ابن الستة عشر ربيعاً، حيث كان أول الشهداء الذين سقطوا في انتفاضة الأسرى والمعتقلين في معركة الامعاء الخاوية التي ابتدأوها منذ أسبوعين، مطالبين بإطلاق سراحهم، من «الباستيلات» التي أمضى بعضهم فيها أكثر من ربع قرن – ثمة معتقلون فلسطينيون أمضوا 25 عاماً في الأسر وما زالوا معتقلين – .

ربما لم تكن المواجهات هي الأكثر سخونة في قلقيلية، لكن الحافلة الاسرائيلية التي يقودها مستوطن يهودي يعتمر «الكيباه» قد جعلت المواجهات في ساعات المساء الأكثر وهجاً وصخباً والتحاماً وجسارة، حيث أقدم ذلك المستوطن بحافلته الهائجة وطحن تحت عجلاتها الطفلين الشقيقين عامداً متعمداً، حتى استعصى الأمر على الطبيب – لاحقاً – أيضعُ شقف اللحم المهروس مع جثة هذا أم ذاك.

أمّا ما غفلت عن ذكره وسائل الإعلام فهو أن أم الطفلين كانت تسير خلفهما متثاقلة بسبب حملها، ورأت بأم عينها طفليها وهما يتدحرجان تحت عجلات الحافلة الإسرائيلية، فوقعت مغشياً عليها، حيث أفاد

"شو يعني مات؟"

إلى الشهداء الأطفال

الأب ..

لماذا تداري دموعَك أمام أبنائك، والدم ينفرط ويعبئ الشاشة؟ هل تخاف من احتشاد القلب وانفجار الرمانة الساخنة؟؟ اخرج من البيت إذاً! أشعل السيجارة من عقب أختها، وتمشَّ قليلا، واترك مسبحة عينيك تتساقط، واجهش قليلاً، ولا تدع أحداً يراك.

ولماذا كل هذا اللوم والتعذيب لذاتك؟ ماذا كان بوسعك أن تفعل أكثر؟ كان حقّاً على الملايين خارج السياج أن يخجلوا من المرايا، وهم يحلقون ذقونهم صباح كل قصف. كان واجباً على آكل مال السُحت، كانز المليارات، أن يدرك أنه ليس أكثر من أجير صفيق، يذبح الأغاني والنهار، ويهرق أعصاب البسطاء وكرامَتهم، ليبدو نبيّاً للوحدة، أو مؤلّفاً فذاً للأنهار اليباب، أو الكلام التافه.

لا عليك أيها الرجل الذي تطحنه الجنازاتُ، ويمزع قلبَه العجز! يكفيك أنك توفر للشهداء كتفاً يحملهم إلى بوابات الجنّة، وتقف مع الثاكل المذهول، وتستلّ من خفة الكيس مبلغاً، تضعه في يد جارك المستور، يكفيك أنك موجود بلحمك ودم أبنائك، على هذه الأرض، يكفيك أن زهرة قلبك تتوحّش أمام الدبابات، وتصبح أوراقُها سماوات من بولاد، تحاول أن تردّ الطائرات عن الصغار المفزوعين، والشيُوخ المتراكضين في حيرة الظهيرة المتوترة.

ولا عليك، فإنه يكفيك أنك تستطيع المشاركة، ولو بدمعة خرساء، تشاطر بها الناس، وهم يسيرون بهمّة باسلة إلى الغد، ولا بأسَ إن رأتك زوجتُك أو أبناؤك، وأنت تبكي، فهذا أول الطوفان.

الفتى ..

للموت نداءٌ لا يسمعه إلا الفتيان، خصوصاً أولئك الذين هجّر الاحتلالُ الفاشيُّ طفولتَهم، أو ضربَ الجنودُ آباءهم أمام أعينهم. . فكان لا بدّ من الردّ بأقصى ما يمتلكه هؤلاء. لهذا يكون موتُهم أكثرَ وسامةً من وَلادتهم، مثلما يكون خروجهم من بيوتهم دون إذن جميلاً ومبرورًا، ويجعل هذا العقوقَ آيةً للمغفرة والمباركة، كما يجعل دفاترَهم المدرسية وأشياءهم الصغيرة أيقونات تقدّسها العائلةُ، وتمسّدها برفق، وتحرص عليها كأنها حروف الله، أو رداء نبيّ.

أيها الولدُ الذي عبأَ حقيبتَه بالحجارة، وخبَّ إلى المتراس، لتورقَ الكتبُ بالدوالي والحنّاء. أيها الفتى الذي صبّوا في رئتيه الغازَ المسيل للعار، فحرموه من هواء المراجيح، وفضاء مشاوير العصفور، ليس لك إلا أن تتعلّق بصخرة النشيد، ليقف أبوك المشروخُ بالمهانة والضعف، على أرض النموذج الراسَخ الذي ينبغي أن يعلو ولا ينكسر.

أيها الولد الذي حطّ على شباكه دوريُ النار، وأعطاه سرَّ النداء. انفث هذا الأوار في كل الجهات، وامنحْ أمَّك المنديلَ المقدّس، الذي يكسر نومَ الهواء، أو يوقظ البعيدين المهزومين، وأكملْ حريقَ الأدغال، لينبت التفاحُ الطفلُ في البستان، دون أن يجرح الدخانُ، أو ضحكاتُ الضبع في الوديان صفحةَ الأسيل.

ويا فتى المقلاع وأقراص الشمس والنشيد، وصلت إلينا هديتُكَ التي فاضت بالعندم وحبات الرز، لخطوات الزفّة الكاملة، وستحمل أختُكَ الملحَ لتنعفه في وجه الحسد، فلا بأس من الكَشْف. . وإطلاق ملامحك في الطرقات، فقد عاد الدوريُّ وحطّ على شبّاكَ أخيك.

الأم ..

ماذا حَلمت يا امرأة ؟ هل رأيت في منامك رؤيةً تبشّر بزفاف ابنك الطفل ؟ أم أن قلبَك يَأكُلك عليه ، حتى يَعودَ منَ مدرسته يحمل حقيَبته الَصغيرة ، فتضمّيه- وَهو يعجب من هذا الحنان المنفعل المفاجئ- وفي عينيك صورة محمد الدرّة تمور بكامل رصاصها؟

عليك يا امرأة! ! وعليك أن تردّي بالبسملة والآيات ، عينَ البندقية ، وتحيطي صغيرَك بالأدعيةَ والدموع ورجاء السَماء ، وعليك أن تستيقظي من نومك لتصرخي فيَ وجه الكابوسَ ، وفزع التوقّعات الحيّة ، وأن تضعي السيناريو ، من أوّله حتَى دفن الجثة الرانَخة ، واستقَبال الجارات الباكيات ، والهتافات القريبة المذبوحة! ! وعليك أن تعرفي -سلفاً- أن الحياة ستعود بكل رتابتها ، وستعيد أجهزةُ التلفازَ والفضائياتُ أشرطة لقاءات المفاوضين والمفاوضات ، الأحياء منها والأموات . . ورغم هذا ، عليك ، كل يوم خميس ، أن تحملي ضمةَ الورد البلدي ، وتذهبي إلى الشاهد البريء ، لتُلقي عليه سلامَ الرضى والرحمة ، وما تبقّى من دموع .

وأعرفُ ، كأنني أراك ، أنك ستبكين بسخاء هادئ ، كلما سقط شهيدٌ جديد ، وستذهب عيناك ، بلا وعي منكً ، إلى صورة ابنك المعلقة ، وحدها ، على الجدار ، وسيخفتُ صوتُك شيئاً فشيئاً ، وأنَت تسألين بعتب عن أُمّة العرب ، وجيوش الأعراب المنسَية .

فهل أقول لك إن رؤيتكَ كانت أضغاث أحلام ، وها هو ابنك يطرق بابَ الدار عائداً من مدرسته! ! فاستعيذي بالله من الشيطان . . وإياك وأحلامَ اليقظة السيئة!

الأب .. الأم .. وفتى القدس الشريف

إلى الشهيد فارس عودة

هل ذهبت إلى الجنّة؟!

حسناً، طولكرم جنّة أيضاً، وأقسم بالله، لو أنكَ سمعتَ بكاء أبنائك وأهلك ونشيج صراخهم لكشفتَ غطاء النعش، ونزلت منه، وذهبت إليهم تعتذر لهم عن موتك!

لكنك لم . . ولن تعتذر، كأنك تريد بموتك أن تدفن قرن المظلمة والاستلاب، وتبعث بدمك الجُلّنار ذكرى العاصفة المتجددة، حتى الأسوار والنشيد الأخير.

وهل نحن أحياء لنقول إنك ميت يا ثابت؟ وكيف نكون أحياء وصخرة المعراج محاطة بسنابك خيل الآخرين، ولم يرتفع حزننا الغولي فوق قامة الفقاعة، أو على ضباع أسبارطة التي تلعق دماءنا بأنيابها وخراطيم حديدها المُهلك.

وهل سنواصل السلام بعد قليل؟ لتنسرب الرغوة الفاسدة إلى رئتي القرى والصلوات، ونطوي صفحة وجهك الأرجوان؟

أرى حبّةً من كهرمان صدرك تسقط في الطريق . . وبعد قليل، ستنفجر الأشجار، وينفضُ فتى العاصفة غصْنَ البرق، لتنثال على الدنيا أنوار المجد والخلاص! عندها، ربما، سنبكي رجلاً، كان ثابتاً على عهد التراب، وكان اسمه العالي المسجّى: ثابت ثابت!

بالاً لقمصان السجن أو لزمهرير الهزيع . كان يفرك كفّيه، ويعاود الاطمئنان على المرضى، يجسّ نبضهم، ويعصر خرقة الماء، ويبسطها على جبين مَنْ وقع في حمّى تردّد المناخ .

حُمْرةُ وجهه زائدة، كأنه مرهون لغضب أبدي، أو كأنه من سلالة «الزهراء» الطاهرة .

على مثله يبكي الرجال، وعند موته يموت الصبر، ويصبح الحزن وحشاً يفتت الكبد، ويحرق القلب .

مَنْ رأى أبا أحمد؟

كان زهر الليمون الشتوي يسّاقط من أكمامه، ويطلّ النرجس من عنقه المشرّب بالمغيب، كانت عرائسُ الغموض تحفُّه، وتحمل خطوته إلى درج الصباح، فيظلّ واثقاً رائقاً يضوّع الطريق بالأريج .

كان في المعتقل، يرقب رقعة الشطرنج، حتى إذا فرغ اللاعبان نصح الغالب والمغلوب، وبيّن لهما أخطاءهما، وعندما يطلبه أحد للمبارزة كان يقول له : إن بيادقي من لحم ودم، وأنا الحصان والقلعة والملك!

كيف سمحتَ لهم، أيّها الملك، أن يُقلّبوا جثمانك أمام عدسات الصحافة، ليظهروا للعالَم مكمن إصابتك ومداها . . ولم تبعدهم؟!

كنتَ مستسلماً، ذراعاك على بطنك مقيّدتان، كنتَ حيادياً، ثم دفعوا بك إلى الصندوق المُعتم البارد!

انتظرتُ أن تدفعهم بعزيمة يديك، وأن تنهض بكامل نبيذك وعسلك، وأن تذهب إلى ملابسك، فترتديها من جديد، وتعود إلى إصلاح السيارة من ثقوب الرصاص الغليظ .

لماذا لم تفعلها وتنهض يا ثابت، لماذا؟

يحق لعيني الفهد الخضراوين اللتين انطفأتا باغتيال د. ثابت الثابت، أن نَصبغ أسناننا بالسواد، حزناً ومرارةً، وأن نهيل الرماد والتراب على رؤوسنا، وأن ينتحب القلب، ويجوح الصدر . . حتى لا يظل دمع في الرأس.

مَنْ يُصدّق أن ثابتاً مات؟!

-أستغفر الله العظيم-

هل رأيتم رجلاً من ندى وريحان، ووجهاً من فرح الأطفال، وضحكة من رذاذ العيد؟

ذاك ثابت الثابت.

وهل عانقتم نهراً في جسد يضفضف بالنور والذهب؟ وهل أحببتم صلاةَ الشجر، أو لقاءَ البعيد العائد؟ وهل حملتم زهرةَ الحليب إلى الأمهات بأناقة وخشوع؟

لقد كان ثابت في العناق المجيد، حتى سقط!

ثابت (أبو أحمد) مات. إذاً، لتدقّ الأجراس ألف ألف عام، ولتُكَبّر المآذن ألف ألف مثلها، وليكتبوا على مداخل المدن والبلاد: ثابت مات! فلتُرضع السروةُ ابنتها لبناً من دمعها عليه، ولتُطلق السباعُ قشعريرةَ الوديان بعويلها، لأن أبا الجبال مات، وأبا الينابيعَ مات، وأبا الطيور البريئة مات.

مَنْ رأى منكم أبا أحمد في السجن؟

كثيرون، بالتأكيد!

كان تاج شمعة بحجم الإنسان، يحبّ الشعر الواضح وأطفال السخرية، ويمتعض من الالتباس والغمغمة. قليل الكلام، دائم الابتسام، لم يُلقِ

لم يعتذر عن موته

إلى الشهيد ثابت ثابت

واضحاً، جلياً، يبشّر بأن الله افتدى الأقصى بكبش يعبد المُكحّل الجليل . وثمة كلمات من حجر، بها يتوب الله علينا، لتكون سجدةُ الأنبياء بدايةً لصلاة الجسد الغارقة في شرايينها المفتوحة على الساحل والمرج والقرى الراضيَة المرضيّة .

تعقيب :

بعد أسبوعين بالتمام والكمال من استشهاد هلال وبلال، فُجعت شقيقة الشهيدين، مرةً أخرى، باستشهاد زوجها الشاب!

ثم قالوا: مضى هلال إلى مدخل البلدة الشرقي، ومضى بلال إلى مدخلها الغربي، كأن كلاً منهما سيضرب الأخطبوط في رأسه المرعب، أو ليمنعا الأفعى الخرافية من أن تمدّ أجراس سُمّها إلى البيوت والطين والزرع البريء . . وانفلت الرصاص.
كان هلال على موعد مع خمس رصاصات، نفذت من صدره إلى قلبه، وخرجت من ظهره، وكان بلال مع خمس رصاصات أخرى، نفذت من ذات الصدر والقلب والظهر . . وسقطا سروتين . . والدم ينضح سخياً ساخناً صافياً من جذعيهما . .
ونادى المنادي أن ادفنوهما معاً، فهما واحد في واحد، غير أنهما تجاورا في لحدين جارينَ، وعليهما سعفتان من نخلة واحدة.

*

يقول حارس المقبرة: ثمة قنديل، يشعّ ليلاً من فوق قبر هلال وبلال!
- لكنهما قبران، أيّها الحارس؟
بل قبرٌ واحد، فقد اتّحد الشاهدان، ولملم تراب القبر رداءه، وحطّ على تراب القبر الآخر، وأصبح قبراً واحداً، يليق لأن يرتوي بمصحف واحد، أو فاتحة واحدة . . ألم تروا أن ثمة سعفة نخل واحدة؟ أين السعفة الثانية؟ يا حارس القبور المُضاءة بالبابونج، وصحن الجمر، والكتاب الواحد والبُطمة الشرسة، لقد رفع بلال الأذان اليعبدي لحجيج الانتفاضة، حتى لا ينهب صدى معركة الشيخ حجارةَ وادي السريس، بل ليحلّ صهيل الأبدان، وغناءُ الثاكل، في كل الجنبات والتلال. وحتى يطلّ هلالُ العيد

الشهادة الساطعة، والتي كان أكثرها وميضاً وإيلاماً استشهاد الشقيقين التوأمين هلال وبلال أبو صلاح في زمن واحد، اجتمعت فيه بغيةُ القتل في باغة القاتلين، ونخلّوا جسديهما، في لحظة واحدة، رغم أن هلال كان في مكان يبعد عن مكان بلال مسافة تزيد على الكيلومترين . . فكيف ذلك؟

قالوا -وصدق مَنْ قال-: إن هلال وبلال كانا أكثر من شقيقين، جاءا من رعدة واحدة، أو من رحم شريف واحد، بل كانا جسدين بروح واحدة تناسخت فيهما! ويشهد المعلمون في المدرسة أنهما كانا يلفظان جواب السؤال معاً، ويرفعان أصابعهما للردّ سويةً، ويحبّان الألوان نفسها، والمشاوير ذاتها، والطعام نفسه . كانا يسيران معاً، ولا يتكلمان، فثمة خيط ضوئي يصل بين حنجرتيهما وقلبيهما، لهذا، كانا فجأة ينظران أحدهما إلى الآخر، يبتسمان أو يسألان!!

وكان النعاس يقسم جناحيه عليهما، فيضع جناحاً على عيني هذا، وآخر على وجه ذاك، وكانا يستيقظان في ثانية واحدة!! وكانا هادئين طيّبين بشوشين، لم يعشقا فتاة تعتلي سطوح البيت، أو تطأ الطرقات مثل القبّرة في الربيع، لأنّ كلاً منهما أراد أن يترك لصاحبه نبض الزهرة الأولى، وحرقة الجمرة النابضة . . فآثر كل منهما الأمر للآخر . . وهكذا، لم تحظَ مليحة الحيّ ببرق النظرة من هذا أو ذاك .

وقبل أن يسقطا في دقيقة محددة موسومة بالرصاص، نظرا طويلاً أحدهما إلى الآخر، ومشيا بخطوات ثابتة متسقة، وفتحا الباب، وذهب كل منهما إلى مشواره الأخير . . ولم يودّعا بعضهما، لأنهما سيلتقيان، بعد قليل، جثتين تفضيان بالزبدة الحمراء، وستتحد روحاهما لتصعدا معاً إلى الله .

الجبل الذي قيل: إن إبراهيم الخليل، عليه السلام، صلّى على ترابه، فكان سجّادته الممرعة، مثلما يقال: إن أبا البشر آدم، عليه السلام، تلقّى من ربّه كلمات، هناك، فتاب عليه! وربما، ليس غريباً أن يختص هذا الجبل بنبات الشومر الحلو اللاذع، دون غيره من التلال أو الحواكير! كذلك، فإن «جبل المُصلّى» هو متراس البلد المبارك، الذي يردّ جنود الموت خائبين، فإذا وقف الشبان بحجارتهم أو بنادقهم على جبهة هذا الجبل انتصروا!! وأصبحت زخّات الموت الاحتلالي فقاعات تدفنها حجارة الجبل وترابه المقدس، وطالما ألقت الطائرات شواظها وقنابلها، دون أن تمسّ مزقة زعتر، أو هامة فتى متحفّز، بل تنطفئ القنابل، كأنما غُمست في رمل مبلول.. ولا نبالغ!

أما «بطن الضبع» الواقع شمال يعبد، أو كما ينبغي أن يُلفظ: «بطن الظبع»، فإنه المنطقة الأكثر وعورة وغموضاً! وهنا، في «بطن الظبع» يتعالى شجر البُطم والسرّيس، مثلما تنسرب مياه الأساطير والحكايات؛ عن الغول، أو الضبع الذي يهوس الرعاة، أو يأخذ الرجل إلى مغارته.. فلا يسترد وعيه حتى تضربه بوابة بيت الضبع على جبينه، فيوقظه دمُه.

وعلى التلال المجاورة تتكوّر المفاحم، وسقائف الأغصان، وسيقان الشجر المقطّعة.. وحذار من فحم يعبد، فإنه أسرع اشتعالاً من سعير جهنم، أو وادي الويل المهَول!

وماذا بعد؟

ثمة ميزة ليعبد، فهي لا تقدّم الشهداء أفراداً ووحداناً، بل توائم وجماعات! وعلى الباحثين في نظريات الحاسّة السادسة، وما يسمى «التلبثي» أو توارد الخواطر، أن يأتوا إلى يعبد، الآن، ليدرسوا ظواهر

ابتَعَدتْ عن الطريق، وبالتأكيد طريق الشرّ، فأطلقوا عليها اسم يعبد! والأرجح أنها بقيت في مكانها، مثل المعبد، فكانت يعبد! البلدة الأم لثلاثين قرية وعزبة. لم يذكرها المؤرخون حتى مطلع القرن الثالث عشر للميلاد، لأن الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبي، غاسل الأقصى بطيب الرماح، ومحرّره من الفرنجة، أقام «معسكر يعبد» ليراقب الساحل الصليبي، آنذاك، أو ما سُميّ «الممالك اللاتينية».

لهذا، نستطيع أن نفهم مسألتين؛ الأولى أن بلدة يعبد هي أول مَنْ حمل السلاح الشريف، والرشاشات في الانتفاضة الأولى، باعتباره سلاحاً توالد من صدى معارك الشيخ المجاهد عز الدين القسّام وإصرارها الذي استشهد في بطن وادي السرّيس في يعبد، ما يعني تواصل هذه البلدة وإصرارها على الشهادة والمرابطة والجهاد، منذ صلاح الدين، مروراً بالقسّام وليس انتهاءً بالانتفاضة الأطول في التاريخ، لأن يعبد ما زالت تقدّم، على طبق من صخر، مغسول بماء الرمّان، شهداءَها الأبرار الأزكى.

أما المسألة الثانية، فتقاسم عائلات يعبد الشرف الراشدي، وأعني أن جذر عائلات يعبد يعود إلى أُصول النسب القُرشيّ، فهذه العائلة يمتد نسبها إلى أبي بكر الصديق، وتلك إلى الفاروق عمر، وهذي إلى عثمان، وهؤلاء إلى عليّ كرم الله وجهه، أو إلى خالد أو سعد، ما يعمّق مجرى الشهادة والبذل والإيثار في ضلوع أبناء يعبد وبناتها، لأنّ صلصالهم مسكون بترابيّة الصحابة الخالدين.

ويعبد، التي جعلت ليل المحتلين جحيماً، تنام متيقظة، ووسادتها «جبل المُصلّى» الواقع شرق البلدة، والمطلّ على أذيال مرج بني عامر، ذلك

يعبد .. هلال العيد وبلال الأذان

إلى الشهيدين الشقيقين هلال وبلال أبو صلاح

وتعلّقت به، حتى اضطرَ حاملوه إلى أن ينزلوه إلى أرضِ الرصيف..
فانكبت تقبّل وجه الشهيد ورأسه، وتبكي بمرارة وصوت مَخنوق، وظلَّ المشهدُ على حاله حتى تقدّمت بعضُ النسوة، فرفعنَ المَرأةَ من إبطيها، وذهبنَ بها إلى الصَفوف الخلفيةِ حيثُ تقفُ النساء!

- مَنْ هذه المرأة؟

قالوا: تلكَ أمُّ الشهيد الذي سقطَ قبل يومين.

- ماذا قالت لشهيد اليَوم، ولماذا قبَّلته، ومسحت وجهَهُ بيدها غيرَ مرَّة؟

قالت النساء: إنّ شَهيدَ اليوم هو ابنُها الثاني، أمّا لماذا قبَّلته، فلأنها أمُّه التي وَلدته، أمَّا لماذا مَسَحَت وجهَهُ عدَّة مرَّات، فحتّى تمسحَ عن خدِّه دمعةً قفزت مِنْ عَيْنه، عندما سمع ابنتهُ تناديه: بابا.

لم تستيقظ الأرملةُ الشابةُ من نُعاس الحُقْنة المهدّئة، التي سارع الطبيبُ بها، بعدما فحَّ خبرُ استشهاد زوجها الشاب، وأصبحت المرأةُ الصغيرةُ في غيبوبتها الغائمة، لا تميّز سوى ظلال الجنازة العارمة، التي دخلت البيتَ ليودّع أهلُ الدار ابنَهم، وخرجت، كأنّما انفعال المشيعين وتوترهم لم يُمْهل الزوجة لأنْ تقفَ على قدميها، وتسيرَ باتجاه النعش، لتلقي النظرةَ الأخيرةَ على مَنْ كانَ قبلَ ساعات يتقلّب، بكامل سخونته وحركات نومه، أليفاً على ضفّة نومها، غيرً أن طفلةَ الشهيد التي بلغتَ العامين من عُمرها، زاحمت المشيعين والأقارب، وتمكّنت من الوصول إلى حافة النعش، فَصَمتَ الجميعُ، وساد هدوءٌ ثقيل، كسرته الطفلةُ بمناداتها لأبيها: بابا.. ومدّت يدَها الصغيرة إلى شَعره، كأنها تُمسّده أو تعبث به.. فتصاعد نشيجُ الحضور، وعلا بكاؤهُم، وتقاطرت عيونُهم بسخاء.. حتى أن بعضهم جاح وناح.. وفقَد نصفَ عقله. أما النساءُ اللواتي كُنَّ خلفَ الرجال في الصالون الموازي، فقد شَقَّ صراخُهن المفجعُ الجدرانَ والأبدانَ، ما ضاعفَ في بكاء الرّجال الذي بدأ نشيجُه يَظْهرُ جلياً، كما أدى إلى أن يَفْقد الكثيرون ما تبقى منَ عقولهم. وظلت المرأةُ الشابة ذاهلةً، متجمّدةَ الملَامح، لا تعي ما يدورُ حولها.

ومضت الجنازةُ إلى الجامع الكبير للصلاة عليها، دخل الكثيرون للصلاة، وظلَّ كثيرون ينتظرون، وتجمّعت النَساءُ خلفَ صفوف الرجال.. ينتظرن أيضاً، غيرَ أنَّ دموعهن كانت تلمع، والأنينَ يعلوَ ويخفت، والمناديلَ تَمسح، دون جدوى، رَشْحَ العيون المتواصل.. وبعد حين، علا التكبيرُ، وحَمَلَ الرجالُ النعشَ.. وما أن طلَّ من بوابة الجامع، حتى تسلّلت امرأةٌ من بين صفوف المتدافعين، ووصلَت إلىَ النعش،

دمعة الشهيد

إلى الشهيد جهاد سمحان

لكنّه خرجَ، فسارَ النَمْلُ المتوحّشُ على جدران قلبها يأكُله، كأنَّ بروميثيوس قد حضرَ للتوِّ لمشاركتها هذه التراجيدياَ السرَمدية.
غابت الشمسُ، أو لعلَّها لم تُشْرقَ اليوم، بل ظَلّت في رداء البَحْر الغربي، تُمَشّطُ شَعرَها، تاركةً الشرق لشمس الدماء التي طَلَعت، للمرةَ الألفَ، من شُروقها الدائم. غابت الشمسُ، ولم تَسمعْ المرأةُ التي اكتسَبت هذه الصفةَ، قبل ثلاث ليال فقط.. كان أبوها يناديها: يا بنت! فَتُزْهرُ في وجهها نجمةُ الوَعْدَ. نادَتها خالتُها الجديدةُ، أو أمُّ زوجها أو عمتُها أو حماتُها، أو نادتها كلُ هؤلاء، لتشاركَهم طعامَ العَشاء، لكنَّ أخدودَ النَمْل كانَ يتسعُ في قلبها الصغير.
يقولوَن: للموت نداءٌ يسمعه من سَيراهُ أو يلقاه، ربّما يكونُ هذا واقعياً؟! والواقعيُّ أيضاً أنَكَ تحسُّ هذا النداءَ، إذا حثَّ الخُطى عليهم، إنْ كانوا أحباباً أو أهلاً أو قطعةً من قلوبنا.
.. ما بالُكَ أيّها النَملُ الأسودُ تتركُ كلَ الأرض، وتنفذُ إلى قلبي، لتأكلَ هذا الطريَّ النابضَ الذي لم يتحركْ إلاّ من ساعَات؟ مَنْ دلَّكَ على تُفاحة ضلعي لتقضُمَها بضراوة؟ وتُنخّلهُ حتى يَصبح حفنةً من رمل؟ لماذا أجَبْتَ سُليمانَ، وهو يَخبُّ بجَيشه، ولم تُهيّئني لهذه الصعقة الماحقة؟ ربُما حَمَلتكَ سُورتُك في القلوب آيات بيّنات، لكنّ قلبي صغيرٌ على حَمْلك. هل ماتَ وقتُ رجائك؟ وهل سَقطَ نصفُ القلب؟ أُخرجْ! لقد توَقّف نبضي، وها هي الجَلَبَةُ خارجَ البيت، أسمعُها تحملَ لُحمةَ قلب القتيل، فافتحي يا عمتي، يا خالتي، يا امرأةَ عمي، يا حماتي، يا كلَّ هؤلاءِ، افتحي بوابات الدارِ، فلقد كانَ العُرْسُ ناقصاً.

ليلٌ مطهم بشهوة النَمر للحم الغزال. أربعةٌ وعشرونَ عاماً كانت كافيةً لأنْ ينتهي الخيالُ من لُعبَته المَحمومة، مع ما تُمثّله تلك المليحةُ من فتْنَة وغموض. لهذا تنبّه الأقدمونَ واجترَحوا الطقوسَ البهيجة حتى يخرَجَ الإنسانُ من كَهْف العُذْريّة إلى نبع التوالد في بَرّ الحياة.

وماذا غيرُ المَيّاس وَفَمُ الياسَمين وَسوسنُ الزرافة ذلك الذي كان يضجُّ برغوته في أحلاَم يقظة المتحفزّ، للدخول إلىَ المرأة الجاهزة، المعبأة بالقُرنفلَ والزنجَبيل وعطْر الغُلالات وحرير مَوقد الماسَ.

أربعةٌ وعَشرونَ ربيعاً لَم يصَل الصيفَ إليها، ليبدأَ موسمُ الحصاد، وحتى يَرنّ خلخالُ المنجل، ويحزّ بأناقة بالغة ساقَ الشريان فتسري القَشعريرةُ في أوصال النُحاسَ. أربعةٌ وعشرون شَتاءً لم يصل الغَيمُ فيها إلى الرَعْدَة الكاوية، الَتي تُهيئُ الأرضَ للهَلع اللذيذ، ولينبتَ الصغارُ في مواكبَ الحقولَ.

أربعةٌ وعشرونَ خريفاً كان أقساها خريف هذا العام! كان فصلاً مُخاتلاً، بدأ بغواية الدخول إلى فضَّة العطْر وعَرَق الوادي، وانتهى بالأَخْذَة التي كانتَ ضرَبْتُها مُصوَّحة.

الآن ينهضُ حنظلة الغسيلُ من ترابه العتيق، وقبلَ أن يُشقْشقَ الفجرُ، بزَغَبه، ليُجيبَ، مرّةً أُخرى، نداء مُنَادي الحَياة!!

.. لَمَ تكُن العروسُ، المأخوذةُ بالتَحوُّل من الضفائر إلى انتظار الحَمْل، قد استفاقت بَعْد، من وَطْأة هذا الدفَق الحريف، وهذه الجدران، التي بالكاد تنفَّسَتْ بهواء جديد.

لم تستَطع أكثرَ من مَدِّ يديها، برجاء مكتوم، علّها تعيد حديدَ كتفه إلى الخزانة المرتَّبة بعناية النَفْحَة المُستَبشرةً.

حنظلة الغسيل

إلى الشهيد محمود العمواسي

عاهل العاصفة

. . . ظلّ الرجلُ محتفظاً بصبا الغابات، وصيرورة الموج الحلو، من الجبال إلى الموانئ، حتى السَجْدةِ اليانعة على الرمل الموعود بالعُشْب والنشيد والحجر.

يبدو عادياً، لأنه البعيد الرائق، الذي يَمدّ الينابيع، في ظهيرة الظمأ . . لتُمرع نايُ الأعراس، في أماسي البلاد. تراه راسخاً، لأنه سيف المتراس، يفهق بين الجمرة والجرح، ويظلّ قَنطرةً للصغار والدوالي.

غُصن يديه سُلّم النجمة العاشقة، وصوته ممحاة العتمة الثقيلة. وبصيرته تتجاوز الغابة السائرة إلى القلعة.

خجله لوزة الجبل. فيه نسغ الرحمة والأعياد. تسمع خرير وجيبه كلّما سقط شهاب، أو عثرت فرس عند سواتر النار. فيه تواضع السلالة المستحيلة، وعفو اليمامة المستوحشة.

دمعته زهرة ليمون، وابتسامته ثوب النهر. هو عاهل العاصفة، وغارس أغصان القَسَم. يتفتّح في ليل الزنجبيل، ويعلو على رغوة الكلام. لا تهزّه الحوادث، ويمسك بإصبعيه غُرّة الأرض . . ولن يتركها حتى الساهرة، أو فليأت أمرُها، ليلاً أو نهاراً. ثالث اثنين، الفاروق وصلاح الدين. محمولٌ علَى باشق الحق.

يكره الرمل وأشباه الصور. ولا يسمع إلاّ مساجلة النجوم. تجاوز السؤال فأصبح ضلعاً في كل بيت. يليق بنا، ونليق به في المواسم الصعبة . . ونبقى نُحبّه!

عباءة الورد

نصوص الشهداء والانتفاضة

رام الله 2001 م